محمد الناصر النفزاوي

فارس، بيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع



دار الجنوب للنشر - تونس

فارس بين بيزنطة والجزيرة العربية
من القرن الثالث إلى القرن السابع

محمد الناصر النفزاوي

فارس، بيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع

دار الجنوب للنشر - تونس

SUD EDITIONS
79 نهج فلسطين، 1002 تونس
الهاتف: 782/991-785/179
ISBN: 9973-703-46-4

التقديم

يتناول هذا الكتاب تطوّر وضع العرب من القرن الثالث الميلادي الى قيام الدولة العربية الاسلامية أي هذه الفترة التي عادة ما يقع طمسها في البرامج الدراسية فيظهر التاريخ العربي وكأنه وليد القرن السابع الميلادي والحال أن أحداث هذا القرن ليست إذا ما نظر إليها بمنظار التاريخ الانساني الضارب في القدم غير أحداث البارحة.

لقدكانت الدول الساسانية والرومانية والحبشيّة وإن بدرجات متفاوتة هي القوى العظمى طيلة هذه الفترة تمثّل أولاها المعسكر الشرقي وتمثل ثانيتها باعانة من الحبشة المعكسر الغربي وكان وضع العرب بينهما من ناحية وضع التابع لهذه القوة أو تلك ومن ناحية اخرى وضع الشتات المحكوم بالصراع القحطاني العدناني بل بالصراع الداخلي حتى ضمن هذه التصنيفات العربية الفضفاضة مما يمكن معه القول لو كان بامكان التاريخ أن يعيد نفسه إنّه صورة لوضع العرب نهاية القرن العشرين.

غير أن الحروب المتواصلة بين الساسانيين والرومان ثم البيزنطيين انتهت في القرن السابع إلى حالة نزيف ذهب بقوى القوتين العظميين جميعا ورافق هذا النزيف حيرة عقدية رشحتهما الى ما يشبه النزع الاخير في حين شهد العرب في ذات الوقت ولادة وحدة قومية دينيّة مكنتهم من ملء هذا الفراغ العالمي فأسسوا لهم دولة عربية إسلامية دامت ثلاثة قرون.

الاشارة إلى أن القارىء سيلاحظ ما من شك في ذلك الاختلاف الواضح بين ما أوردنا من بعض التواريخ وبين ما هو متداول في كثير من الكتب. وسبب ذلك واضح فالفترة موضوع الكتاب مازالت لأسباب عديدة في حكم ما قبل تاريخ بعض الشعوب الأخرى. لذلك عمدنا الى نوع من "المفاضلة" بين تواريخ تظهر أحيانا في كتابات المختصين (مثال دائرة المعارف الاسلامية) غاية في التباعد.

الفصل الاول

الصحراء المطوقة.

يطلق المؤرخون الغربيون على القرون الثالث والرابع والخامس الرومانية عبارة "الامبراطورية الدنيا" Bas Empire وهي تشبه في الحضارة العربية فترة حكم المطيع والطائع في القرن العاشر المتسمة بتفتت الحكم المركزي وغلبة العناصر غير العربية على العنصر المؤسس للدولة الأصل ولذلك يمكن تعريبها بـ"عصر الانحطاط".

وقد يبرر اتجاهنا هذا النهج في المقارنة أن الفترتين تعدّان فترتي انحطاط عند دعاة القومية الغربيين والعرب على حدّ سواء. وإذا كان هناك اختلاف بين العرب والغربيين حول المسألة فهو يقتصر على الديانيين من الطرفين ذلك أن فترة الانحطاط الرومانية مكّنت المسيحية من الانتصار في حين يربط الديانيون المسلمون فترة الاشراق السياسي والديني بثلاثين سنة من القرن السابع الميلادي أي بفترة التحام العروبة بالاسلام التأسيسي التحاما كاملا. وما ذلك في نظرنا إلا لطابع الدين الاسلامي الاول الذي يستحيل فيه، رغم أشكال "الاجتهاد" المختلفة الفصل بين الدين والدولة. لذلك سوف نقتصر لاظهار الشبه بين ما يسمى بفترة الانحطاط الروماني والعربي على الآراء القومية عند العرب والغربيين دون سواهم رغم أن القوميين العرب الكلاسيكيين يؤرخون لبداية الانحطاط بحكم المعتصم (833-840). كتب الامير مصطفى الشهابي في أواخر ستينات القرن العشرين:

وغلط المعتصم العباسي غلطته المشهورة فأدخل في جنده عددا كبيرا من غلمان الاتراك فأدّى ذلك إلى استبدادهم بالحكم وإلى ضعف الخلافة وضياع سلطان العرب حتى في بلادهم أي البلاد السامية العرق، العربية اللسان والثقافة.[1]

وكتب سامي الكيالي في الفترة ذاتها:

اختلف الاخوان الأمين والمأمون على الحكم فاستنصر المأمون الفرس على العرب جنود أخيه، وقتلت الأعاجم الأمين (...) وكان المعتصم، أخو المأمون، يشاهد هذا الانقلاب السريع العجيب ويشاهد تطاول الفرس بعد مصرع الأمين، فراعه أن "تمشي الموسى إلى ذقنه" وهو في ارتقاب الخلافة، ناهيك أنه قد أرضع طبائع الأتراك من أمه التركية حتى نشأ لا يؤمن بالعروبة (...) فرأى أن يشد ساعده ببني خؤلته (...) فما أن بُويع حتى أسرع يؤلف جيشا من المرتزقة الاغراب ولا سيما من الفرغانيين والأتراك.[2]

أما جان بابيلون J. Babelon، فقد كتب متحدثا عن انحلال الحكم الروماني الاغريقي في القرن الثالث الميلادي عندما ارتقى عرش روما الامبراطور الليبي سيبتموس سفيرس (193–211) الذي شاركته زوجته السورية الاصل جوليا دومنا Julia Domna (158–217) الحكم:

عندما نرى جوليا دومنا تتخذ لنفسها حاشية من المثقفين وتجادل الفلاسفة يمكننا أن نجزم أن هذه الأفضال العقلية ليست ابتكارا وأنها لا بد أن تكون لها أسس صلبة في رأس تمرست مدة طويلة على النظر العقلي بفضل البيئة التي عاشت فيها بحيث يمكننا أن نتبين الخطوط الأولى لماساة بجالها هذه المواجهة وهذا الصراع بين التقاليد الاسيوية العكرة والغامضة وبين الديالكتيك الاغريقية النيرة التي طعمتها البراغماتية الرومانية. إن هذا هو ما أمكن تسميته ثار الساميين المتأخر من الثقافة الكلاسيكية.

إن سوريا جوليا دومنا وهي تتحد بافريقيا سيبتموس سيفيروس كانت اليد التي حققت هذه الغلبة المشؤومة التي ذهبت نتائجها بامبراطورية أغسطس وتراجان. لقد تعمدت ابنة باسياموس Bassiamus العمل بثبات ومثابرة على انجاز عملية التفكيك متسترة بعتمة الاشراقية الشرقية الغامضة.[3]

هكذا تحدث قوميان سوريان عن فساد العنصر التركي الاسيوي فنسبا اليه سبب انحطاط العرب وكأنه يكفي أن يتعرض جسد قوي للدغة زنبور أو

1– مصطفى الشهابي، القومية العربية، القاهرة، 1969، ص 37.
2– سامي الكيالي، الادب والقومية في سورية، القاهرة، 1969، ص 66.
3– Jean Babelon: Impératrices syriennes, Paris, A. Michel, 1959, p. 37.

هبّة هواء فيموت. وهكذا تحدث قومي غير عربي عن فساد العنصر السوري فنسب إلى إمرأة خراب امبراطورية كاملة، وما أقرب هذا التفكير من تفكير من نسب إلى فأر خراب سد مأرب.

إن أخطر ما يعبر عنه الموقفان العربي والغربي هو هذا الحديث عن "هوية" وعن "خصوصية" تشبهان الثوابت أو المعاني المطلقة رغم أن كل شيء في حياة القوم يثبت في كل لحظة تهافت مثل هذه المفاهيم.

إن مصدر هذه المواقف لا يمكن أن يكون غير ردود الفعل التي لا تعرف غير الجموح حتى عندما تتجمل "بالعقلانية". فصاحب كتاب "امبراطوريات سوريات" كان حتى وهو يؤكد على سعة اطلاع "جوليا دومنا" التي مكّنتها إما مباشرة أو بطريق المطالعة من النفاذ إلى فلسفة أوريجينوس الاسكندري (186-254) وترتليان القرطاجي (155-222) لا يكف عن حصر مجالها الفكري في دائرة التقبل إذ كيف يقوى عقل "سوري" على الابتكار؟

إن في التاريخ فترات تبدو أشبه ما تكون بحالات الكسر تنهار فيها قيم قديمة ولا تتمكن القيم الجديدة من الاستقرار فيصاب التفكير البشري بالفزع. ففي بدايات القرن التاسع عشر انتجت الحروب النابليونية "فختة" Fichte الالماني فكان حربا على قيم الثقافة الفرنسية ولغتها، وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ظهر من الكتب المؤبنة للحضارة الغربية ما لا يشبهه غير ما ظهر بعد الحرب العالمية الثانية. وفي تسعينات هذا القرن عَقِبَ انهيار المنظومة الاشتراكية حالة من "الفزع" لا يستطيع المرء أن يتنبأ من الآن إن كان بامكان الانسانية الخروج منها بسلام.

مثل هذه الحالات عرفها القرن الثالث الميلادي فلقد تخشب المجتمع الروماني وتخثّر إلى حد دفع مثقفي العصر إلى البحث عن بدائل جديدة فاتسع مجال الغنوصية وانتشرت المسيحية أكثر مما كانت عليه في القرنين السابقين. ولم تنج الامبراطورية الساسانية من حالة الشك هذه فظهر النبي "ماني" (قتل عام 276) يدعو إلى دين جديد يعوض المزدية-الزرادشتية. وحول الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الساسانية كان يتمحور أكبر جزء من العالم القديم.

أما على المستوى السياسي فقد غلبت العناصر غير الرومانية على الدولة الرومانية وكثرت حالات سيطرة العسكريين على السلطة، ولم يقتصر الامتزاج على الاجناس فقط حتى يمكن تفسير الانحطاط الروماني عنصريا، بل شمل الدين واللغة أي كل أنشطة الحياة. كتب بابلون حول ذلك:

في زمن أتاح لنا تبين الشروخ الأولى المنبئة بخراب روما نرى في تولّي الافريقي سيبتموس سيفيروس الحكم ثأر الروح السامية القديمة من روما التي داست هذه الروح بالاقدام وردًا من القدر على لازمة كاتون Caton "Dalenda carthago" (ولكم في تدمير قرطاج حياة)[4].

إن العائلة الليبية-السورية ستحتكر عرش الامبراطورية الرومانية في روما مع ابني سيبتموس سيفيروس وجوليا دومنا وهما الاخوان الخصمان كاراكالا (211-217) وجيتا (211-212) وكذلك مع ايلاجلابوس Elagabel(الجبل)(218-222) حفيد جوليا ميزا Julia Maesa أخت جوليا دومنا ومع أسكندر سيفيروس (222-235).
كتب فيليب حتّي منتصرا لهذه العائلة السورية الافريقية التي حكمت روما طيلة نصف قرن:

تمتعت أم كركلا، واسمها جوليا دومنا بكثير من المواهب والجمال، وهي ابنة رئيس الكهنة في هيكل سامي في حمص. وقد تعرفت إلى زوجها سبتيموس سفروس عندما كان قائد جيش في سوريا. وتظهر على النقود التي صكّها سبتيموس في جزء من هيكل. وهذه النقود تشبه تلك النقود التي صكّها امبراطور روماني جاء بعده هو فيليب العربي (244-249) الذي كان من أصل سوري وولد في قرية من قرى حوران.
كانت جوليا تفاخر باللقب الذي لقبت به (أوغسطا) أي العظيمة الجليلة، فراحت تعاون زوجها في إدارة الحكم، وبعد موته تسلمت دفة الحكم وادارته بمقدرة فائقة كما أظهرت حنكة في السياسة برّت بها حنكة زوجها وادارته. وكان عندها مستشار قريب لها اسمه بابنيان، كان حقوقيا بارزا وأستاذا للقانون في مدرسة الحقوق في بيروت (بيريتوس). وقد ضمّ مجلس جوليا المؤرخين وطلاب الحكمة وغيرهم من رجال العلم أمثال الطبيب الاغريقي الشهير جالينوس. وبعد وفاتها تسلّمت الحكم أختها الصغرى التي فاقتها قدرة، إنها جوليا ميزا، جدّة

4- المرجع السابق ص،59.

ايلاجلابوس، تخليدا لاسم إله سامي في حمص، وجدة اسكندر سفروس الذي ولد في عرقا–لبنان وهو آخر وأعظم امبراطور من هذه العائلة.[5]

ويتحدث بابيلون في غيظ عن آثار هذا الامتزاج الذي لم يقتصر (وهذا أمر طبيعي) على الأجناس بل تعدّاه إلى اللغة والمثل السياسية والعسكرية حتى ضمن الطبقة الحاكمة:

كانت لغة عائلة الامبراطور الجديد الأم ولغته هو كذلك اللغة البونيقية أي هذه اللغة التي لا تربطها صلة من الصلات باللغة اللاتينية، زد على ذلك أن هذا اللسان ذاته تحرّف نتيجة اندماج طويل في الأهالي الليبيين. ولقد أشار سالليست Salluste عند حديثه عن يوغورطة إلى هذه اللغة المحلية المصطبغة بالبربرية. ومن ناحية أخرى فإن سيفيروس قد يكون صرح اثر احتفال أقيم على قبر حنبعل الذي بنى عليه حسب زيتزيس Tzetzes نصبا من المرمر تخليدا "لأعظم رجل حرب في العصور القديمة"، أنه يعتبر نفسه تجسيدا للقائد القرطاجني الذي تكفي ذكراه وحدها لإثارة هلع الجمهورية.[6]

فالاختلاط الجنسي واللغوي والفلسفي إنما كان نتيجة توسع دولة كان الحكم فيها محصورا في نواة عرقية ضيّقة ثم أصبحت أطرها القديمة عاجزة عن استيعاب وتأطير هذا التوسع. كذلك سيكون وضع القريشيين من بني هاشم وعبد شمس يوم تبتلع دولتهم العربية الاسلامية أكثر مما كان بامكانها أن تتمثل من أجناس ولغات وفلسفات. فما يسمى بالانحطاط الروماني في القرن الثالث والانحطاط العربي الهاشمي –العبشمي بعد ثلاثة قرون من قيام الدولة العربية الاسلامية إنما هو أمر طبيعي.

على أن أهم ما يمكن أن يدحض رأي القائلين أن العامل الخارجي ممثلا في غلبة أجناس أجنبية على الأمم هو سبب انحلال الدول لا إحدى نتائج هذا الانحلال هو تجربة الدولة البارثية التي اسسها مهرداد Mithridate الأول في القرن الثاني قبل الميلاد. وستسقط بعد حكم دام أربعة قرون تحت ضربات أردشير الساساني في الثلث الأول من القرن الثالث (224). لقد قامت هذه

5– فيليب حتّي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الادنى، بيروت 1975، ص 175.
6– بابلون، المرجع السابق، ص 60.

الدولة في خراسان[7]، ولذلك يطلق عليها بعض المؤرخين اسم الامبراطوريّة البارثية (L'empire parthe) ثم توسعت في فترة ما فهيمنت على الهضبة الايرانية جميعها الموزعة اليوم سياسيا إلى الدول االثلاث فارس في الغرب وافغانستان في الشمال وغرب باكستان في الجنوب الشرقي أي ما يسمى بـ"بلوشستان"[8].

هذه الدولة بدت في الثلث الأول من القرن الثالث أشبه ما تكون بالجسم المفكك الأوصال يتقاسمه الاقطاعيون ورجال الدين المجوس. ولولا الضعف القاتل الذي كانت عليه الامبراطورية الرومانية في هذه الفترة لأمكنها أن تذهب بخصمها القديم. ففي السنة التي كان فيها كاراكلا في روما يجهز على أخيه وشريكه في الحكم حيتا (212)، كان أردشير، حفيد ساسان وابن بابك Pabhagh الذين انفرد بيتهما بوظيفة كبير القائمين على خدمة معبد النار باصطخر، يتمرد على ملك مقاطعة اصطخر ويضم إليه شيئا فشيئا مقاطعات ملوك الطوائف المجاورة ليتغلب في نهاية هذا المطاف السياسي الديني على ملك ملوك الطوائف نفسه، أردوان الخامس سنة 224 ويؤسس دولة ساسانية لن تتمكن من القضاء عليها بعد عمر امتد خمسة قرون غير الدولة العربية الاسلامية.

إن حالة التحلل الداخلي التي وصفنا لم تكن محصورة في القوتين العظميين الشرقية والغربية لذلك العهد بل كانت تشمل العالم القديم جميعه ومن ضمنه بلاد العرب الواقعة بين المطرقة الايرانية والسندان الروماني والتي إذا كانت تتحدد جغرافيا بـ"العربية"، فهي سكانا وأنماط عيش لا يمكن أن تفهم إلا باعتماد التصنيف السسيولوجي (بدو/حضر) الذي ليس في نهاية التحليل غير تعصير للتصنيف السلالي التقليدي عدنان/قحطان.

يقول ابن خلدون الكندي القحطاني في الصنف الأول منهما:

7- تعني بالفارسية الشرق (Khvarasan) أما الغرب فهو (Khvarvaran)

8- Raymond Furon, : Iran, Perse et Afghanistan, Paris, Payot, p. 5.

وكانت قبائل مضر مع ذلك بل وسائر العرب أهل بغي والحاد وقطع للأرحام وتنافس في الردى واعراض عن ذكر الله فكانت عبادتهم الأوثان والحجارة وأكلهم العقارب والخنافس والحيات والجعلان وأشرف طعامهم أوبار الابل إذا أمّروها في الحرارة والدم.[9]

إن هذه العلاقات الاجتماعية (البغي وقطع الأرحام والتنافس في الردى ووأد البنات) قد عبر عن روحها شاعر ينتمي إلى هذا الصنف هو زهير بن أبي سلمى الرياحي بقوله:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

لقد كانت تلك العلاقات علاقات أقوام لم تتمكن بعد، على عكس ما كان عليه الايرانيون والرومان وحتى القحطانيون، من بلوغ طور نشوء الدولة بما يلائم مثل هذا القصور من نظرة إلى الأشياء تتسم بالتجزؤ البالغ (عبادة الأوثان والحجارة التي يوافق عددها تعدد القبائل تماما كما يوافق الوحدانية بمراحلها المختلفة تقلّص القبلية ومركزية متزايدة للدولة) لأن بيئة القوم المادية لا تسمح لا بنشوء الدولة ولا باقامة علاقات اجتماعية على غير ما عرفوا منذ أقدم العصور. ولذلك فلن يكون للعدنانيين شأن إلا يوم يبدّلون مع قيام الدولة العربية الاسلامية، التي كانوا أكثر الناس ضراوة في محاربة دعاتها، بيئة ببيئة ويتحولون من بيئتهم الأصلية إلى بيئة جديدة (الشام وبلاد الرافدين، الخ) فيكون في ذلك بدؤهم ونهايتهم. ومن لم يفعل ذلك منهم فقد بقي حتى نهاية القرن العشرين على ما كان عليه أجداده قبل قيام الدولة العربية الاسلامية. أما عن الصنف الثاني أي القحطانيين فقد كتب ابن خلدون:

ولم يكن في العرب ملك إلا في آل المنذر بالحيرة للفرس وآل جهينة بالشام وفي بني حجر (من كندة) على مضر والحجاز.[10]

ويفسر انحصار الملك قبل قيام الدولة العربية الاسلامية في القرن السابع في القحطانيين بنوع الحياة التي كانوا يحيون. وهي إن لم تكن مناقضة مناقضة تامة

9- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج 3 ، بيروت 1977، ص 104.
10- المرجع السابق، ص 704.

لما وصف من حياة العدنانيين[11] (لاستحالة التناقض المطلق في كل ما يمت بصلة إلى حياة البشر المتجاورين خاصة) فهي أقرب إلى الاستقرار في الأرض بكل ما يعني ذلك من توفر ظروف نشأة الدولة أو على الأقل بذورها الأولى وما يتبع ذلك من مؤسسات يصعب الحديث عنها عندما لا يتوفر حد أدنى من ظروف الحياة المادية.

هكذا يبدو وضع القحطانيين شائكا إذ هم أكثر حضارة من العدنانيين لذلك ملكوا عليهم، وهم أقل حضارة من الأمم المجاورة لذلك قاموا بدور الحزام الواقي لهذه الأمم من غزوات من سيصبحون "أخوتهم" منذ هجرتهم إلى المدينة القحطانية واختلاط المهاجرين العدنانيين بالانصار القحطانيين.

لقد كان أردشير وهو يوسّع امبراطوريته يلامس في الآن نفسه المنطقة العربية الخطيرة التي كان الرومان قد ضمنوا فيها منذ مدّة ولاء الإمارة التدمرية. أما أردشير فلم يكن له فيها ولاء عربي مضاد يحقق التوازن بين المعسكرين قريبا من مصب دجلة "الذي كان يهيمن عليه إذاك عرب جاؤوا من عمان هم الرواد الذين مهدّوا الطريق للقبائل العربية التي ستستقر في الحيرة غرب الفرات على ما يبدو عند نشأة الدولة الساسانية بالضبط"[12]. نقول ستستقر لأن أردشير سيرى في هؤلاء العرب اليمنيين وسيلة يمكن أن تقي حدود الامبراطورية الساسانية من غزوات البدو في نجد والخليج:

> نشأت حوالي هذه الفترة في ما وراء نهر الفرات الذي يتجه في هذه المنطقة نحو دجلة ويقترب منه حتى مسافة 50 كلم تقريبا مملكة عربية خاضعة للامبراطورية الساسانية هي مملكة الحيرة التي ستصبح سورا يقي الامبراطورية من غزوات البدو الرحل[13].

هذه الامارة كانت تحتاج للقيام بدورها إلى عون من القبائل في المنطقة فتخيّرت لها من ضمنها بني يربوع واسندت لهم وظيفة الردافة:

11- المرجع السابق ص 524.

12- Christensen, Arthur: L'Iran sous les sassanides, Copenhagen, 1936, p. 82.

13- المرجع السابق، ص 90.

إن وظيفة الوزير (الردف) في مملكة الحيرة قد تكون ارثا في عائلة بني يربوع تعويضا لها عن التنازل عن المطالبة بعرش الحيرة. وبهذا يكون النظام الايراني قد تجاوز الحدود المعقولة وما كان ذلك ليحصل إلا في دولة صغيرة كدولة الحيرة تقع تحت رقابة امبراطورية كبيرة وفي حمايته[14].

ولقد كان منصب الردافة هذا بما يوفره من مكانة اجتماعية "لليرابيع" من تميم ومن منافع اقتصادية حريّا بأن يربط بني تميم الخليجيين باللخميين برباط وثيق:

فالرديف يجلس على يمين الأمير إذا شرب ويردفه إذا ركب ويخلفه إذا غزا. وكانت له أتاوة على كل من في طاعة الأمير. وكان بنو يربوع التميميون يفخرون بأنهم أرداف الملوك.[15]

هكذا تفطنت السياسة الساسانية منذ قيام الدولة الجديدة في الثلث الأول من القرن الثالث إلى الخطر العربي الكامن فمنح أردشير القبائل الأزدية واللخمية النازحة من اليمن إلى الحيرة التي كانت تخضع للحماية التدمرية "استقلالا ذاتيا تالفا للعرب وتأمينا لسلامة بلاده التي كان البدو لا يفتأون يشنون عليها وعلى القوافل التجارية غاراتهم. ومن ثم تحوّلت المخيمات إلى الحيرة مدينة العرب يقوم عليها جذيمة الأبرش (التنوخي) كأمير نائب عن الملك الفارسي أردشير"[16]. وبذلك ربط الساسانيون اللخميين برباط ولاء دائم ونظّموا علاقاتهم بهم تنظيما محكما فكان تاج الإمارة للخميين ومنصب الرديف (الوزير) إرثا في بني يربوع. أما البحرين التي ستضم إلى الامبراطورية الساسانية زمن سابور الثاني (310-379) فسيحكمها حاكم عربي يعينه ملك الحيرة على أن يستعين بأحد كبار الموظفين الساسانيين. ويقيم في البلاط الساساني بصورة دائمة مكلّف بالشؤون العربية وبالترجمة يتقاضى مرتبه من ملوك الحيرة[17].

14- المرجع السابق، ص 104.

15- أحمد مختار النجار، علاقة امراء الحيرة بعرب شبه الجزيرة كما يصورها الشعر، القاهرة 1979، ص 85.

16- المرجع السابق، ص 26.

17- christensen, المرجع السابق ، ص 130.

إن هذا الارتباط السياسي التنوخي (أزد-لخم) ومن ثم التميمي بالساسانين هو الذي يفسر استقرار الملك في هذه القبيلة العربية القحطانية منذ عهد أردشير في القرن الثالث إلى عهد كسرى أبرويز الذي سيقتل النعمان بن المنذر في مطلع القرن السابع الميلادي وهو الذي يفسر استماتة اللخميين في الدفاع عن أولياء نعمتهم من الساسانيين.

هذه السياسة الساسانية التي تتمثل في اتخاذ العرب القحطانيين ردعا واقيا للحدود الساسانية لم تظهر نجاعتها قبل الثلث الأخير من القرن الثالث بسبب نمو دور مملكة تدمر الطموحة. فقد بلغ من شأن هذه الامارة (المملكة) أن استغلت فترة انتقال الحكم في ايران من أيدي البارثيين إلى ايدي الساسانيين وما صاحبها من صعوبات داخلية وكذلك وضع الرومان الصعب في النصف الأول من القرن الثالث ليبدي اميرها أذينة سيبتموس (قتل عام 267) طموحه إلى الاستقلال بمنطقته وتوسيعها. وعندما اندلعت الحرب بين سابور الأول (241-272) وفاليريان (253-260) سنة 260 وانتهت بغلبة سابور وأسر الأمبراطور الروماني في مدينة الرّها، انضم أذينة إلى الرومان واعترض طريق عودة سابور وألحق به هزيمة ثقيلة وأجبره على التراجع حتى ما وراء الفرات وسيطر على نصيبين وسوريا وكلّ المناطق الرومانية في آسيا الصغرى فمنحه الامبراطور غاليان (253-268) لقب "الثاني" في الشرق لقاء تبعية شبه صورية لروما ولن تنجح محاولات الساسانيين حتى سنة 265 في الفتّ من عضد تدمر.

إن أذينة سيقتل سنة 267 وقد يكون لزوجته باث زيبينا (زنوبيا عند الرومان والزباء عند العرب ومعنى ذلك عند البعض ابنة العطاء وعند البعض الآخر ابنة التاجر) ضلع في قتله. وستتولى زنوبيا الحكم مشركة ابنها "وهب اللات" في تسيير شؤون الامارة فيتلقب هو بلقب أغسطس إعلانا منه عن الاستقلال التام عن روما (271) وتعقد أمه حلفا مع سابور فيثيران غضب الامبراطور الروماني الجديد أورليان (270-275) فيهجم بقواته على تدمر ويأسر الملكة لتحمل إلى روما فتموت بعد عام من الهزيمة (274).

كتب فيليب حتي عن زنوبيا بلهجته التمجيدية كلما تعلق الأمر بالعرب الشوام خصوصا:

قبضت على زمام الحكم بيد من حديد فنظمت البلاط على نمط بلاط ملوك الفرس وأحاطت نفسها بكل مظاهر الالهية والجمال وادّعت أنها تمت بصلة النسب إلى شبيهتها كليوباترة المصرية. لقد تعهدت زينوبيا الحضارة الاغريقية ورعت اللغة اليونانية التي درستها على يد أستاذ فيلسوف شهير اسمه لونجينوس الذي أصبح فيما بعد مستشارها. وبعد أن بسطت سلطتهاعلى جميع انحاء سوريا وشمالي الجزيرة العربية والجزء الشرقي من بلاد ما بين النهرين، حشدت جيوشها ووجهتها نحو مصر، حيث أقامت في مدينة الاسكندرية حامية تدمرية ثم اتجهت نحو الاناضول وتوغلت داخل البلاد إلى أن بلغت أنقرة. وفي نشوة انتصاراتها أعلنت الغاء الوصاية الرومانية على بلادها وأعلنت استقلال مملكتها استقلالا تامّا ولقّبت نفسها بالعظيمة "أوغسطا"[18].

لقد خلف سقوط تدمر سنة 273 فراغا كبيرا كان لا بدّ أن تملأه كيانات سياسية قحطانية بديلة ولذلك فقد شهدت المنطقة جميعها قيام توازنات جديدة. ففي جنوب الجزيرة تأسست في اليمن الدولة السبئية الثانية حول الملك (شهر يهرعش) بين 274 و 310 الذي تلقّب بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة رمزا منه إلى توحيد مجموعة الامارات اليمنية المتناحرة وتصدّيا للحبشة التي تعاقبت غزواتها لليمن بداية من عام 281. أما اللخميون فكانوا أكبر المستفيدين من انهيار تدمر.

لقد ناصر اللخميون الساسانيين في حربهم ضد أذينة سنة 260 وإذا كان الساسانيون قد منوا بهزيمة في هذه الحرب فإن الحيرة فقدت مؤسس الامارة فيها جذيمة الملقب بالأبرش. وعندما خلفه في الحكم ابن اخته عمرو بن عدي (260-273) كانت فكرة الثأر من التدمريين شاغله الأول وها هي تدمر تسقط في أيدي الرومان الذين حولوها إلى أثر بعد عين في الوقت الذي ملك فيه في الحيرة امرؤ القيس بن عدي (274-328) هذا الذي مد سلطانه مستغلا الفراغ على مناطق شاسعة تمتدّ من الحيرة إلى نجران كما أثبت ذلك نقش على

18- فيليب حتّي: خمسة آلاف سنة... ص 180.

لوحة قبره فوق جبل الصفا قرب دمشق عثر عليه المستشرق الفرنسي رينيه سنة 1921 وهذا نصه بالنبطية نقلا عن الحجار:

تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التج وملك الأسدين ونزر وملوكهم وهرب مذ حجو عكدي وجا بزجي في حبج نجرن مدينت شمر وملك معد ونزل بنيه الشعوب وزكلهن فرسو لروم فلم ببلغ ملك مبلغه عكدى، هلك سنة 223 يوم بكسلول بلسعد ذو ولده.[19]

وسنة 323 بتاريخ مدينة بُصْرَى توافق 328 للميلاد. هذا النقش يسمى نقش النّمارة وهو يفيد انه حاصر نجران عاصمة شمر السبئي كما أنه ملك العرب كلهم وخص أسدا ونزارا وملوكهم بالذكر ليفيد اتساع ملكه وقوة سلطانه التي أخضعت قبائل معد وبعض قبائل الجنوب إلى جانب محاصرته نجران، وكان عليه أن يوزع بنيه لملك هؤلاء وقد فخر بأنّه لم يبلغ ملك مبلغه[20]

إن ما يجب ملاحظته هو أن هذ الأمير اللخمي سينضمّ لاسباب لا إجماع عليها إلى الرومان ضدّ الساسانيين فتفقد هذه العائلة العرش لمدة غير محددة مما أحاط تاريخ اللخميين في القرن الرابع بالغموض. على أن ذلك لا يغيّر من الصورة العامة للمنطقة وهي صورة الجزيرة العربية المطوقة بقوتين واحدة قحطانية والأخرى إما ساسانية أو رومانية وفي أحشائها كانت القبائل العدنانية أساسا لا تعرف للوقائع الحربية بداية ولا نهاية.

19- النجار، المرجع السابق، ص 28.

20- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الفصل الثاني

أزمة الضمير في الشرق والغرب حتى سنة 313.

حكم أردشير الأول، مؤسس الدولة الساسانية (224-241) وابنه وخليفته سابور الأول (241–272) ايران مدة تقارب النصف قرن واعتمدا في حكمهما على مركزية صارمة ودين للدولة هو المزدية يقمع كل حيد عنه.

هذه المركزية السياسية وهذه الطاعة الدينية تعبران عن المرتبية الاجتماعية التي رأى فيها الحكم الساساني الجديد أساسا للمجتمع الايراني والتي تتكون كالتالي:

1- كبار رجال الدين المجوس (Magiens) ومن هنا أطلق المسلمون على المزدية اسم المجوسية.

2- العسكريون من الفرسان لا من المشاة الذين هم من أصل قاعدي.

3- الكتّاب.

4- الفلاحون والصناع.[1]

لقد كان المجوس يمثلون القادة الروحيين للمجتمع الايراني والحفظة اليقظين لدين الاله "هرمزد" (مزده) كما حدده زرادشت النبي الأفغاني الأصل في القرن السابع قبل الميلاد في الكتاب المقدس (Avesta) الذي يسميه المؤرخون العرب "كتاب الزمزمة" وفي ما أضيف إليه من شروح وتفاسير (Zand) وهو الزندة عند العرب.

Christensen, L'Iran sous les Sassanides, p: 93.–1

غير أن وظيفة كبار رجال الدين لم تكن تقتصر على الجانب الديني فحسب بل كانت تتعداه إلى تعليم أبناء الطبقات العليا عقائد المزدية ونوع السلوك الذي يجب أن يسلكوا. كل ذلك انطلاقا كما ذكرنا من الكتاب المقدس (أفستا) وشروحه اللذين كانا يعتبران المصدر الأوحد لكل علم وسلوك.

لقد كان المجوس يضطلعون بدور أساسي في المجتمع الايراني لا يكاد يضاهيه إلا دور الفرسان النبلاء الذين كانوا يكوّنون نواة الجيش الايراني الصلبة ولا يتلقون للقيام بوظيفتهم لا راتبا ولا عدّة إذ كانت صفة الفارس وحدها علامة نبل في هذا المجتمع المتعلق بالمرتبية إلى حدّ أن القوانين فيه كانت "تمنع على أفراد الشعب شراء ممتلكات النبلاء"[2]، وتفرض على النبلاء مظاهر تميّزهم عن العامة " في المراكب والملابس والمساكن والحدائق والنساء والخدم"[3].

لقد كان المجوس وطبقة النبلاء الاقطاعية يمثلون دائما في هذا المجتمع مثالا للحمة المصلحة الطبقية. ولقد حرص منشئ الدولة الساسانية الجديدة على أن يبقوا على هذا الوضع بل أن يدعموه أيما دعم ثقة منهم على الأقل في هذه الفترة بقوة دولتهم. غير أن مثل هذا الوضع جعل كل ثقل الدولة وحاشيتها يقع على كاهل القاعدة الاجتماعية المكونة من الفلاحين أساسا والذين عليهم:

1- أن يخدموا الأرض ولا يقربوا ثمارها قبل أن تطالها يد الضرائب الطويلة.

2- أن يحاربوا تحت إمرة الفرسان الاقطاعيين حتى وإن كانوا دائما في حالة أجمع المؤرخون القدماء على انها كانت مثالا للتعاسة.

3- ان يدفعوا الضرائب التي كان القانون يعفي منها النبلاء والفرسان ورجال الدين والكتبة وكل من هم في خدمة الشاهنشاه.

إن المجتمع الذي ارتضاه مؤسسو الدولة الساسانية هو مجتمع يرى في الطاعة أساس الفضيلة ويرى في قبول المرء بمكانته الاجتماعية الموروثة مقياسا للصلاح. ومثل هذا الوضع لا بدّ للإبقاء عليه من دين يمثل الأساس النظري والفلسفي له

2- المرجع السابق، ص 313.

3- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ويضفي عليه صفة الشرعية الآلهية. وهنا لا يخفى دور المزدية التي حرص أردشير على أن يجعل منها دينا رسميا للدولة الساسانية المترامية الأطراف في تمتين مركزية الدولة الناشئة.

فالدين المزدي يتمحور حول إله كوني غير مخصوص بشعب من الشعوب، خالد لأنه سابق لكل المخلوقات، خيّر لأنه لا يمكن أن يصدر عنه الشر. وتبعا لذلك فكل تجليات هذا الاله الخيّر كالهواء والنار والنور والماء والمعادن يجب أن تحظى بالتقديس.

إن تأثر المزدية بـ"شمش" البابلي يبدو واضحا من خلال تقديس بعض عناصر الطبيعة التي ذكرنا وكلها عناصر ترتبط بالشمس ولذلك فهي ضرورية لحياة الانسان على الأرض فتقديسها إنما هو في نهاية الأمر تقديس للخصب والحياة (أي الخير) ودفع للموت المشوش للحياة والذي يرمز إليه بـ"الظلام" لا في المزدية فحسب بل في تراث شعري يمتد إلى اليوم في مختلف الحضارات. غير أن عناصر الطبيعة الخيّرة لا توجد على الأرض صافية بل في حالة الاختلاط وتلوّث وهذا يعني ان المزدية لا تعتمد اي ثنوية في تفسير الأشياء كنسبة الخير إلى السماء والفساد إلى الأرض والصفاء إلى الروح والكدر إلى الجسد أي هذه الثنوية التي ستوقع الفلسفة والديانات التي تتبناها في تشاؤم قاتل. فهي ترى مثلا في الزهور التي تنبت في الأرض عناصر من السماء كالماء والنور ومن هنا كان الواجب الأسمى عند المؤمنين أن يقاوموا عناصر الفساد والظلمة التي تلوث كل شيء في الطبيعة والانسان تغليبا لعناصر الخير والنور. ويوم تتغلب عناصر الخير والنور فذاك هو يوم الخلاص. وأما قيمة الانسان فهي تتحدد بمقدار سعيه إلى تغليب أحد طرفي الصراع على الطرف الآخر. نحن إذا لسنا بإزاء ثنوية تقوم على تضادد كليّ ومتعادل بين الخير والشر إذ أن هرمزد فوق كل شيء وإذ أن عناصر الشر والخير والظلام والنور والفناء والخلود مبثوثة في كل شيء فلا مجال للقول عند المزديين ان الأرض مصدر كل شرور وأن العالم الأمثل في السماء إذ في الأرض الظلمة والنور على حدّ سواء. هذا هو الفرق بين المزدية والثنوية المانوية والغنوصية عموما. إذن نحن إزاء دين لا يقود إلى التشاؤم حتما ويرفض

التزهّد لأن في الزهد موقفا رافضا للحياة والحال أن في الحياة جانبا من النور يجب تعزيزه. نحن إزاء دين عليه ان يبذل جهدا تجريديا أكثر حتى ينزع عنه قدرا اكبر من المادية ليلتحق بالديانات الأخرى.

لا شك أن القضية التي تستعصي على الفهم هي مكانة الروح الشريرة التي تبث الفساد والظلام في الكائنات. إن هذه الروح الشريرة لا ترقى إلى مستوى الاله لأن هرمزد وحده هو الله كما أنها ليست منه لأنه آله خير، وإذن فما مصدر هذه الروح؟ هنا لا تجيب المزدية عن هذه المسألة بالوضوح المطلوب بل تكتفي باقرار مخالطة الظلمة لكل شيء (وكأنها تكتفي بملاحظة ما يحدث في الكون) وتكتفي بالدعوة إلى مقاومتها نصرة للروح الخيرة التي مصدرها هرمزد.

إن المزدية وهي تؤكد على فكرة تواجد الخير والشر معا على الأرض تبرر اقتصاديا وسياسيا الملكية وتبتعد إنما ابتعاد عن المسيحية التي تفصل بين مملكة قيصر ومملكة الله. ولأن المزدية تبرر شرعية الحكم على الأرض بما فيه من مرتبية صارمة ، فقد اضطرت تبعا لذلك إلى تعديد القيود الاجتماعية والدينية فأصبحت الطقوس التي يجب على المؤمن المزدي أن يرعاها كثيرة بل مكبّلة. فعليه أن يبذل جهدا كبيرا حتى لا يلوث العناصر الخيرة من هواء ونار ونور وماء. وهكذا فهو لا يحرق الموتى لأن في حرقهم تلويثا للهواء وللنار على حدّ سواء، ولا يدفنهم لأن في ذلك تلويثا للأرض وإنما يترك جثثهم العارية نهبا للطيور الجارحة.

إن الأمر يصل عند المزديين حد اعتبار الاستحمام بالماء الساخن واحدا من الآثام إذ تحرّم هذه الديانة تلامس (تماس) الماء والنار بل أن في الاستحمام بالماء ذاته إثما إذ أن هذا العنصر المقدس يتلوث بلمس الجسد. وفي هذا نظم الشاعر الحلبي أبو العلاء المعري مستغربا من لا عقلانية الأديان:

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر.

إن حياة المزدي تبدو إذن مقننة لا شيء فيها يترك للصدفة أو الاجتهاد:

فعلى المؤمن المزدي أن يصلي للشمس أربع مرات في اليوم وعليه أن يصلي للقمر وللنار وللماء. عليه أن يقيم الصلوات عند النوم وعند القيام وعندما يغتسل ويتمنطق (أي يشد نطاقه) وعندما يذهب لقضاء حاجته، وعندما يعطس وعندما يقص شعره وأظفاره وعندما يشعل قناديل، الخ.
عليه أن يحرص حتى لا تنطفئ النار في المنزل وحتى لا يسقط ضوء الشمس على النار وحتى لا يلامس الماء النار وحتى لا تصدأ المعادن إذ المعادن مقدسة. أما الاجراءات الضرورية لطهارة من لمس جثة أو امرأة في فترة الحيض أو في حالة ولادة وخاصة إذا أجهضت وليدها فهي على غاية من الارهاق والازعاج.[4]

إن الظاهرة الأكثر تعقيدا في هذا الدين الذي يكاد يخنق معتنقيه -في نظرنا اليوم على الأقل- بما قنن من مرتبية وما ضبط من طقوس تهيمن على حياة المؤمنين، هي العلاقات الجنسية بين الأقارب.
لقد كان المجتمع الإيراني مجتمعا يعدد فيه الذكور الزوجات ويقنن مراتب كل واحدة منهن في العائلة وهذا أمر يكاد يكون طبيعيا في المجتمعات القديمة ولكن الدين المزدي يقر بالزواج بين الأب وابنته وبين الأم وابنها وبين الأخ وأخته بل أنه يبيح للرجل الزوج أن "يقرض إحدى زوجاته لرجل آخر من دينه إن لحقه عوز اضطراري"[5]. وقد لا يكون هناك تفسير لهذه الظاهرة إلا في معاداة المزدية لكل أشكال العزوبة التي ليست في نظرها مظهرا من مظاهر الحياة بل هي مرادف للقحط وبذلك تدخل ضمن الصفات التي تمثلها الروح الشريرة، روح الظلمة. إن المسيحيين المعاصرين للدولة الساسانية والذين لجأ البعض من مفكريهم إلى وجء نفسه قتلا للغرائز الجنسية فيه[6]، وكثيرا منهم إلى العزوبة إخلاصا منهم لدين المسيح، سوف يستهجنون أيما استهجان سلوك المجوس الجنسي وكذلك سوف يفعل المسلمون بعد أربعة قرون. ولكن القضية تحتاج إلى فهم ينطلق من دين المجوس ذاته ذلك أنهم قد اشتهروا بالاستماتة في الحفاظ على صفاء الدم الايراني فما تفسير سلوكهم الجنسي إن لم يكن موافقا لهذا التفسير الذي قدمنا؟

4- Christensen ، المرجع السابق ص 116.
5- المرجع السابق، ص 324.
6- مثال على ذلك أوريجينوس (186-254)

إن المزدية خلافا للثنوية المانوية والغنوصية عموما ترى في عالم المادة وفي الأرض بصفة خاصة صراعا بين قوى النور والخصب والعطاء من ناحية وقوى الظلمة والجفاف والقحط من ناحية ثانية. وخصب الأرض الذي لا يختلف عن خصب الجسد هو غاية نشاط الفلاح الايراني الذي عليه أن يقلص عنصر الجفاف الذي يمكن أن يتلفها بل ان قبول الفلاح بدوره كمجرد وسيلة لاخصاب الأرض (مفهوم الطاعة) هو ضريبته من أجل الخلاص وطريقه إلى عالم النور والخلود.

هكذا تتجلى قيمة المزدية في تركيز الفلاح في الأرض ومدها بعدد متزايد من الخدمة ضمن مفهوم للطاعة يبقى على المرتبية الاجتماعية والسياسية ولسوف يعتبر النبي "ماني" في الثلث الأخير من هذا القرن وهو يدعو إلى مانوية ثنوية فيها الكثير من ملامح المسيحية، عنصر تخريب للدولة ونظام المجتمع فيه فيجمع المجوس على امتحانه فيقتل سنة 276.

كانت عائلة "ماني" الهمذانية الارستقراطية الأصل قد استقرت في قرية تقع بين دجلة والفرات وينشط فيها إضافة إلى أتباع الدين المزدي السنّي، الديانيون المسيحيون والغنوصيون على حد سواء. وقد أحس ماني (215/216-276) وهو يعاشر كل هذه الأديان أنه لا بد من تجديد ديني يأخذ من الزرادشتية ما يأخذ ويأخذ من المسيحية ما يأخذ. واحس أنه النبي المنتظر المدعو إلى تحقيق هذه الرسالة. هذا الاحساس تم كما كان يتم في كل الاديان بطريق الحلم أو الوحي إذ لا بد من رابطة بين الله والسماء وبين النبي والأرض وليس بإمكان مثل هذه الرابطة أن تتنزل إلا خارج ما هو "طبيعي" و "عادي" وبواسطة ملك سماه ماني "الرفيق"[7].

وهكذا بدأت دعوته فدعا الناس إلى الايمان به على أنه الروح القدس (Le Paraclet) الذي تنبأ المسيح بظهوره وبرر ذلك "بأن أنبياء الله كانوا دائما هم حملة الحكمة يظهرون للناس من زمن إلى آخر فكان بوذا للهند وكان زرادشت

7- Christensen المرجع السابق، ص 177.

لفارس وكان المسيح للغرب وها أنّي أنا ماني نبي إله الحقيقة أحمّل في هذا الزمن الأخير رسالة الوحي وأبعث في بلاد بابل"[8].

يمكن القول ان المانوية تقوم على الايمان أن "المبدأين الأصليين همـا ا لله والحركة الفوضوية"[9] التي تحكم العالم. فا لله هو المبدأ الخيّر كما أن الشر هو هذه الحركة الفوضوية وبما أن ا لله خيّر فهو يتدخل لاعادة النظام إلى الحركة الفوضوية. هذا التدخل يقع بوسيلتين وعلى مرحلتين: فا لله يبعث أول الأمر بروح منه إلى العالم. ولكن هذا الاختلاط يُنسي الروح أصلها ومصيرها فإذا هي أسيرة المادة. على أن حالة السقوط هذه ليست حالة نهائية فالروح في حالة بين الحالتين: حالة الأسر والنسيان وحالة توق كامن إلى الخلاص من هذا الأسر ولذلك فإن ا لله يبعث هذه المرة بقوة إنقاذ صادرة عنه (démiurge) تلامس الروح الالهية الغافية في الانسان فتستفيق من غفوتها وتختار الاندماج في العالم العلوي الأصلي وبذلك يتحقق نصر الخير ممثلا في ا لله وفي الروح المنقذة وفي الروح التي خلصت لطبيعتها الأولى بعد حالة الاختلاط على الشر ممثلا في الجسد والأرض.

من الواضح إذن أن المانوية تشبّعت بقراءة معينة للمسيحية. يظهر ذلك حتى في التثليث الذي وصفنا وإذا كان يطلق عليها صفة الثنوية والتثنية فذلك لمقابلتها بين الأرض والجسد والطبيعة من ناحية وعالم علوي صاف خالص وإن كان فيه ما فيه من التثليث.

هذا الاقتراب الشديد من المسيحية يبدو أوضح من خلال تعاليم الدين المانوي وهي التي ستكون سببا في قتل النبي ماني لأنها تناقض المزدية الزرداشتية. فالذيانة المانوية إذا كانت قد راعت مستوى الناس العام ولم تضف إلى القيود الزرادشتية قيودا جديدة تزيد من تكبيلهم ، فقد فرضت على دعاتها المدعوين إلى أن يكونوا قدوة للآخرين ألا يمارسوا اي نشاط مادي يلحق ضررا بالعناصر المقدسة وألا يطلبوا اي شيء في الحياة ينمّ عن تعلق بالجسد-المادة،

8- م.س.ص.179.

9- م. س. ص. 184.

فحرّمت عليهم امتلاك المال وأدخار ما يزيد عن حاجة اليوم الواحد من الطعام والسنة من اللباس وحرّمت عليهم الزواج وأكل لحم الحيوان والخمر وفرضت عليهم سبعة ايام صوم في الشهر الواحد وأربع صلوات في اليوم[10].

هكذا اختلطت المزدية بالمسيحية فأعطت المانوية الزاهدة. ولسوف ترى الدولة الساسانية في هذه الديانة (كما سترى في المزدكية الشيوعية بعد قرنين) أكبر خطر على النظام الاجتماعي والسياسي فتقتل نبيّها سنة 276 وتحقق نصر الدولة ودينها الرسمي الزرادشتي على ديـن المعارضة السياسية الدينية. ونكاد نستغني عن الاشارة إلى ضعف إمكانية تأثير دين كالمانوية على العرب شبه المستقرين في الحيرة المجاورة أو على العرب البدو إذ تحول كل ظروف الحياة دون إمكانية تأثير مثل هذه الديانات الزهدية في قوم لا يسكنون المدن وتفرض عليهم حياتهم نفسها شظفا في العيش يفوق أحيانا ما يفرضه الزهد على المتزهدين. إن الزهد في الحياة تماما كالترف بمظاهره المختلفة إنما هو ظاهرة مدينية بل هو في النهاية موقف من المدينة ولذلك فإن إرجاع ظاهرة الزهد والتصوف إلى الإيرانيين جميعا ومن دون تمييز أو تحديد لا يحتاج دحضه إلى مزيد بيان.

في المعسكر الروماني جدّت أحداث في هذا القرن لا تقلّ جسامة عما حدث في المعسكر الشرقي، واشتد تفكك العلاقة بين الدولة والمجتمع المتعدد الأجناس واللغات والثقافات بسبب تباعد الطبقات الاقتصادية واستماتة كل منها في التعلق بمصالحها وإتجاه مثقفيها عن وعي أو عن غير وعي إلى صياغة نظريات تمتّن مواقعها المادية والثقافية. وفي هذا العصر كان مجال التنظير المهيمن هو الدين خاصة وأن الارسطوطالية التي هي أكثر أخذا بالطبيعي والمادي والواقعي والجسدي والأرضي في الأشياء قد أضعفت ظروف الواقع الصعبة القائلين بها فغلبت الافلاطونية بكل تفريعاتها وظهرت هذه النزعة التي نسبها بابلون في تعصبه على جوليا دومنا إلى إرادة ثأر سامية من "الديالكتيك الاغريقية النيرة التي طعمتها البراغماتية الرومانية".

10- المرجع السابق، ص 189.

والحقيقة أن أفضل معبر عن هذه النزعة قد ظهر منذ قرون ونعني بذلك فيلو اليهودي الاسكندراني (20 ق.م-40 ب.م):

> كان فيلو يعتبر كتب التوراة الخمسة[11] كتبا موحى بها من الله، ومثل هذا المبدأ كان مجهولا لدى فلاسفة الاغريق. وفي الوقت ذاته كان فيلو يقول بثنائية الانسان (أنه مادة وروح) التي نادى بها أفلاطون وأن الجسد هو سجن الروح التي تتوق أبدا إلى الخلاص منه والرجوع إلى الله. والله في نظر فيلو لا يحدّه عقل، وهو أسمى من كل معرفة. أمّا المادة فلها حدود ولها نهاية. ولذا وجب أن يكون هناك وسيط بين المحدود واللامتناهي. وهذا الوسيط بين الله وبين العالم هو "الكلمة" التي وصفها بأنها أول مولود لله: إنها الاله الثاني[12].

إن هذا الشاهد الطويل يلخّص الأساس الذي ستتولد منه كل الخصومات الدينية اللاحقة. فهو يذكر لفظ الوحي (كتب موحى بها من الله) وينسب إلى الزعيم اليهودي موسى (القرن 13 ق.م) صفة الوعاء البشري المؤهل في أوقات حياته المادية لتقبّل مضمون الهي يختلف عن المضامين العقلية المرتبطة بتجربة الانسان الحياتية فيطرح بذلك مسألة طبيعة هذا المضمون ووسيلة تبليغ هذا المضمون ومنزلتها.

وقضية الوحي هذه قد شغلت المفكرين ذوي الأمزجة العقلانية منذ القديم إذ لا بد من التفريق بين كلام الأنبياء (وهم بشر) الذي يندرج ضمن الوحي ويكون فيه النبي مجرد وعاء مستسلم ومسلم وبين كلامهم البشري العادي الذي يكون نتيجة تفكير وثيق الصلة بالأشياء المعهودة التي تدعو كل واحد من الناس إلى إعمال عقله فيها حتّى يتمكّن من التكيّف مع الأشياء[13]. فالوحي يفترض حالة تقبّل مطلقة أو حالة اسلام واستسلام يصبح معها التفكير

11- كتب التوراة الخمسة (Pentateuque) هي :
1- سفر التكوين (Genèse.).
2- سفر الخروج (Exode).
3- اللاويين (Lévitique).
4- العدد (Nombres).
5- التثنية (Deutéronome).

12- فيليب حتي: خمسة آلاف سنة، ص 199.

13- Montgomery Watt: Mahomet à la Mecque, Paris, 1958, p. 80

العادي الذي هو حركة دماغ يتعامل مع مؤثرات محسوسة عائقا من عوائق التقبّل. ومن هنا كان ارتباط تجربة الوحي في الديانات السماوية (إذ توجد ضمن البشرية أمم لها ديانات غير ديانات الشرق الأوسط....) بحالات تعطيل في نشاط العقل العادي وحالات فراغ تؤهل الانبياء لتقبّل حقائق تختلف عن الحقائق التي يتوصلون إليها في حالاتهم العادية بل حالات نوم تشلّ إلى حد ما تأثير الأحداث البشرية وتفسح المجال للرؤيا.

إن اعتبار فيلو كتب التوراة الخمسة كتبا موحى بها من الله يعني أن النبي موسى كان في مجمل اللحظات أو الدقائق أو الساعات الذي فرغ فيها ذهنه من كل ما هو مادي وشلّ تفكيره العادي ووعيه بالاشياء ومنها جسده كان في مجمل هذا الوقت نبيا. أما في ما عدا ذلك من أوقات قد تمثّل 99 بالمائة من حياته فقد كان انسانا يهوديا شبيها بأي كان من البدو اليهود إلا ما كان من هذا التمايز الطبيعي وبين فرد وفرد ينتميان إلى مجتمع واحد. أمّا ما سماه فيلو "الكلمة" أي "هذا الوسيط بين الله وبين العالم" فإن عبارة "أولّ مولود لله" لا يمكن أن تعبّر عنه بالتجريد المطلوب لأنها تقرّبه من صورة البنونة المعهودة والحال أنه "الاه ثان".

إن تهويد الأفلاطونية يتمثّل في إحلال مضمون ديني مثالي محلّ المضمون الوثني المثالي الأفلاطوني أي تديين المضمون وستنشط الحضارة الغربية البرجوازية الحديثة في تذويب هذا المضمون المهوّد احتهادا منها لوضع مجمل تاريخ اليهودية والمسيحية في وضع الجملة الاعتراضية في التاريخ البشري. هذا التهويد للفلسفة شطر الانسان نهائيا شطرين وسيدور الصراع العقائدي حول تضخيم الجانب البشري في المسيح أو تحجيمه. وفي فترات الأزمات الاقتصادية والاجتماعية كثيرا ما كان يهيمن الداعون إلى تحويل حياة الانسان جميعها إلى ما يقترب من هذه اللحظات أو الدقائق التي رأينا كيف كان موسى يفرغ فيها من محتواه البشري ليتحول إلى مجرد وعاء يملأه الوحي أي تملأه "السماء". إن كل تضخم ديني ينجر عنه ضرورة إضرار بمملكة الأرض التي تقوم على "غرق

الانسان حتى ذقنه في الوحل" أي على النشاط المادي والتفكير المرتبط بحياة هذه المملكة.

غير أن اعقد قضية إنما تتمثل في كيفية انبثاث وحي الله المطلق في بشر محدود. بأي وسيلة يكون ذلك؟ بـ"الكلمة"؟ وبأي لغة؟ ولا لغة لله وكل لغة هي لغة بشرية أي محدودة وخاصة بأمة من الأمم. وما منزلة من يتقبل الوحي حتى إن كان ذلك في لحظات معدودات ومجرّد تهيئه لتقبّل الوحي يجعل منه بشرا متميزا عن البشر.

هكذا نرى أن اختلاط الدين الموسوي بالفلسفة الأفلاطونية ابتعد بهذا الدين من حالة الفطرة (اي البساطة الملائمة لحياة البدو اليهود في القرن الثالث عشر قبل الميلاد) من دون أن يحقق اجماع الديانيين على هذه الفلسفة.

هذه الأزمة العقدية بدأت في الحقيقة من القرن الأول الميلادي بعد نهاية العصر الروماني الجمهوري (509–31 ق.م) وانفراد أوكتافيوس (سنة 27 ق.م) بحكم منطقة رومانية تمتد على مساحة 3.000.000 كلم² وتضمّ عددا من السكان يتراوح حسب تقديرات مختلفة بين خمسين وخمسة ستين مليون وهو رقم ضخم بالنسبة إلى سكان الأرض آنذاك إذ لم يكونوا ليتجاوزوا المائتين وخمسين مليونا ولم يكن بلد كالصين يعدّ أكثر من اثنين وخمسين مليونا من السكان. من هذه الفترة وحتى سقوط روما سنة 476 تحت ضربات البربري الجرماني أودواكر Odoacre بدأت روما تسمى بالامبراطورية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من تركيز السلط جميعها في يدي الامبراطور. وقد انتظم الخمسون مليونا من السكان حسب هرمية تتوزع كالتالي:

– الامبراطور وأعضاء مجلس الشيوخ والقضاة المدنيون وكل هؤلاء كانوا حسب المعتقدات الرومانية على صلة بالالهة يديرون شؤون الدولة بوحي من المشتري.

– طبقة المحاربين حماة المدينة وناشري مجدها بوحي من اله الحرب المرّيخ.

- وفي القاعدة طبقتا الفلاحين والصنّاع اللتان توفّران شروط الحياة المادية والفنية والتقنية للمدينة بوحي من .Quirinus وإلى هذه الطبقة ينتمي النجار عيسى بن مريم زوجة يوسف.

أما القيصر أغسطس فتتجمع في شخصه الوظائف الثلاث: إن مكانة القيصر شبه الالهية (ومن القياصرة من سيتأله) لا يفسّرها إلا عظمة روما التي بلغت في عهد اوكتافيوس ما بلغت وستبقى كذلك طيلة القرنين الأول والثاني الميلاديين لتبدأ بالتناقص بداية من القرن الثالث.

هذه المعتقدات الرومانية لم تكن محل اجماع كل سكان المستعمرات ومنها المستعمرة السورية التي كانت تعدّ خمسة ملايين نسمة من السوريين واليهود واليونان. وينشط فيها الدعاة الدينيون (إذ لا وطنية ولا صراع طبقيا في مثل هذه الأزمنة فقد كان كل صراع يتّخذ شكل الصراع الديني) سواء تعلق الأمر بأديان قديمة كاليهودية التي ترقى إلى عهد القائد السياسي والنبي موسى الذي قاد اليهود على عهد الفرعون رمسيس الثاني (1298–1235) في هجرتهم من مصر إلى بلاد الشام وقالت عنه التوراة أنه كلّم يهوه (Y.H.W.H) من فوق الجبل في سيناء وفتح الطريق لقيام الدولة اليهودية وازدهارها على عهد الملوك الثلاثة المشهورين شاول (1030–1010) وداود (1015–975) وسليمان (970–931) والتي ستبقى ذكراها حية عند القوم حتى بعد أن اصبحت دولتهم في وضع التابع لروما الاوروبية كما كان عليه الأمر في القرن الأول الميلادي أو تعلّق الأمر بدين ناشيء جديد سيسمى فيما بعد بالمسيحية نسبة إلى المسيح (من الآرامية: مشيها) وهو عيسى اليهودي أحد أحفاد الملك النبي داود وابن مريم ويوسف واخو يعقوب رئيس كنيسة القدس المتوفي سنة 62 م. وقد ولد هذا المجدّد الديني والمعارض السياسي في الناصرة (الخليل) سنة 7 أو 6 أو 4 ق.م كما أثبت ذلك العلماء في العصور الحديثة على عهد قيصر أغسطس واشتغل بالنجارة حتى حدود الثلاثين من عمره ثم نشط دينيا فأثار نشاطه هذا السلطة الدينية اليهودية الرسمية والسلطة السياسية اليهودية المحلّية عندما اتضح لهما أن

دعوته تهدد أسس المجتمع الموروث إذ تقوم على قراءة جديدة لعلاقة الانسان بالاله وبالدولة وبالانسان فرفعت قضيّته إلى المسؤولين الرومان.

> لقد تأكد أن شروح التوراة الأكثر نفاذا قد عجزت عن الاتيان باشارة جليّة إلى خلود الروح في التوراة. إن اليهودي يسأل عمّا يأتي هنا و عما يأتي الآن من أفعال، فإذا أخطأ فلن يعاقب أو يشفع له في حياة أخرى يعلم الله ما هي. ان اليهوديّ، اذا كان مؤمنا وان دعت الحاجة الى ذلك، يدرك فحسب أن الرّسالة التي يجب عليه أن يضطلع بها في هذه الحياة انما تعزّز طابع هذه الحياة المقدّس"[14]

فليس في الموسويّة عندئذ هذه النواة المولّدة لكل أشكال الشعور بالذنب ولكل أشكال الانشطار والحَرِّية يشلّ طاقات التمدّد البشريّة ان سكنت الانسان. وها أن عيسى "يبشّر بقرب حلول يوم الحساب وبضرورة التوبة في انتظار الحساب وعدم حرمان أي تائب من الخلاص من هذه السّاعة المشهودة"[15] إن الدعوة إلى مملكة السماء تعني إن سكنت النفوس دعوة إلى هجرة الأرض وتحولا من المواطنة إلى الأخوة الدينيّة وتفضي إلى انشطار في الولاء : ولاء للدّولة (الأرض) وولاء لله (السماء) : هذا عندما يتمكّن الانسان من تحقيق تعادلية صعبة كثيرا ما تكون مزعومة. أمّا اذا تضخّم الولاء لله عند بعض المؤمنين فان الحياة الحقّة تصبح عندهم حياة الزهد في ما لقيصر والتعلّق بما لله. وذلك هو مضمون دعوة عيسى وذلك هو مضمون قول الشاعر العربي أبو العتاهية: لِدُوا للموت وابنوا للخراب. لذلك قاوم عيسى من اليهود من رأوا في دعوته خروجا عن دين موسى القديم الذي لا يتضمّن هذا القدر من الزهد وقاومه الرومان لأنّ جزءا من ولاء المواطنين لقيصر سيتحوّل الى ا لله أي أن جزءا من ولاء المواطنين سيتحوّل من روما عاصمة الامبراطورية الى السماء.

لقد قاد تصوّر السلطة ورجال الدين التقليديين لتركيبة المجتمع الفضلى الى ما رأينا من هرمية يتنزّل فيها الصناع والفلاحون منزلة القاعدة حتى لا نتحدّث عمّن دونهم مكانة اجتماعية وها أن عيسى "لا يتحرّج (...) من

---

14 – Josy Eisenberg. Une Histoire des juifs, 1970 - p. 578.

15 – عبد المجيد الشرفي... الفكر الاسلامي في الردّ على النصارى، 1986 ـ ص 33.

معاشرة الاصناف الهامشيّة والمنبوذة في المجتمع اليهودي من عشّارين وبغايا وأناس بسطاء محتقرين لجهلهم بالشريعة"[16].

وهذا الجانب الاخير في المسيحية هو الذي لن تتمكّن الحضارة البورجوازية الرأسمالية من هدمه في المسيحية لأنّه افضى الى تبلور علاقة بين الانسان والاله قوامها الأب ـ الابن كبديل عن العلاقة السيد ـ العبد، ومن يقرأ لبعض الكتاب المسيحيين وغير المسيحيين من العرب المعاصرين كجبران في كل ما كتب وكنجيب محفوظ في "اللص والكلاب" يحس بهذا الاستغلال المكثّف لسلوك المسيح الذي يتجاوز الانتماء الديني ويتجاوز أشكال الكتابة بدليل أن رواية كـ "المعذبون في الأرض" لطه حسين تخلو رغم العنوان والنماذج البشرية موضوع الرواية خلوّا كاملا ممّا ذكرنا. أما في الغرب المسيحي فقد تمثل هذا الجانب في مناصرة بعض رجال الدين للثورات التحررية وفي اشتغال كثير من اللائكيين باعمال البرّ عبر العالم. فلا بدّ عندئذ من استحضار هذا الجانب عند المقارنة بين الموسوية والمسيحية والمحمدية : فشمس الله المسيحية تبدو هنا دافئة لا محرقة.

لقد تجمّعت اذن في الدعوة الجديدة كل العناصر التي تجعل منها دعوة خطيرة دينيّا وسياسيا واجتماعيّا واقتصاديّا على الدولة الرومانية ومحمييها من أعيان اليهود. ومن هنا كان الصراع بين عيسى والسلطة اليهودية المحليّة :

> انّ حادثا بارزا في دعوته يظهره لنا ملتجئا الى نوع من العنف الماديّ لاصلاح المؤسسة اليهوديّة المركزيّة، ذاك هو طرد تجار الهيكل، وهو حادث تبدو صفته التاريخيّة مؤكدة في جملته: ان عيسى بطرده العنيف للصيارفة الذين يوفرون للحجيج النقود الخالية من الصور البشريّة حتى يتمكنوا من أداء الضريبة للهيكل، وكذلك للتجار الذين يعرضون على المؤمنين الحيوانات الصالحة للقربان، انما يهاجم أقوى وسط في الشعب اليهودي، وسط المتصرفين في الهيكل وفي ثرواته وطقوسه، وبالتالي يهاجم الحبر الأكبر ذاته"[17].

وردّت السلطة السياسية اليهودية المحليّة الفعل فاعتقلت هذا المعارض الديني ـ السياسي وسلّمته الى سلطة الحماية الحريصة على الحفاظ على الأمن في

---

16 – المرجع السابق، ص 35.

17 – المرجع السابق ص 35.

مستعمرتها "وكل الدلائل تشير إلى أنّه قتل صلبا في ربيع سنة 30 م بطريقة كانت مرادفة لاكبر لعنة في تلك البيئة"[18].

لقد ظنّت السلطة السياسية وهي تسلك بازاء عيسى هذا المسلك العنيف أنها قد اجتثّت هذه الدعوة الدينية الجديدة من جذورها ولم تتفطّن في الابّان إلى أن الأموات في كثير من الأحيان هم أكثر خطرا بما لا يقاس من الاحياء. وفعلا فلقد أصاب أتباع عيسى المؤمنين بأنّه المسيح المنتظر لا مجرّد نبيّ من البشر ما أصابهم من صدمة دامت بعض الوقت ولكنها لم تعمّر طويلا. وتضخّم السؤال الكبير: كيف يمكن أن تمتحن كائنات بشريّة زائلة الها خالدا ؟

دام السؤال حينا من الزمان وأفاق الحواريون من صدمتهم اثر رؤيا تعلن عن تهافت الخيار الروماني. يقول يوحنّا[19] في رؤياه (18/1/1) متحدّثا عن ظهور المسيح بعد دفنه:

"فلمّا رأيته سقطت عند قدميه كالميّت، فوضع يده اليمنى عليّ قائلا : لا تخف، أنا الأوّل والآخر والحي، وقد كنت ميّتا وها أنا حيّ الى دهر الدهور، ولي مفاتيح الموت والجحيم"[20].

ولنستحضر من جديد ما ذهب إليه فيلو عندما قال بثنائية الانسان وأنّه مادة وروح أي شكل ومضمون فعيسى الذي صلب ودفن على مرأى ومسمع من الجميع أيْ عيسى التاريخي لم يكن غير الجسد والشكل والصورة أي هذه المادة الزائلة الخاضعة لقوانين الطبيعة من حياة وموت ولكن المسيح الذي ظهر ليوحنّا في الحلم (أي في هذه الفترة التي بدت له انها فراغ ذهني مطلق لا شائبة تشوبه من حضور أرضي انما هو ذلك المضمون الروحي الخالص الذي أسكنه ا لله جسد عيسى حتى يكون واسطة بين ا لله والبشر ويوم انتهت رسالة عيسى في الأرض عاد للاتصال بمصدره وهو ا لله في حين لم تحتفظ الارض منه الا بما شبّه لمن صلبوه أنّه المسيح وليس هو في الحقيقة غير وعاء المسيح (أي الجسد).

---

18 – المرجع السابق ص 38.

19 – يوحنا : أحد الحواريين الاثني عشر وصاحب أحد الاناجيل الاربعة القانونية (ت. حوالي 100).

20 – ع. الشرفي ـ الفكر الاسلامي، ص 38 (حاشية 45).

ولسوف ينتشر أتباع المسيح في العالم كلّه منذ هذه الفترة المبكّرة لنشر الدين الجديد الذي سيزداد ابتعادا عن اليهوديّة حتى يستقلّ بنفسه دينا انسانيا لا دينا وطنيا مخصوصا بشعب كالدين اليهودي رغم ما سيلحقهم طيلة ثلاثة قرون من تعسّف السلطة الرومانيّة واستعصاء هذا الدين على العقول الميّالة الى فهم للاشياء قريب من الارسطوطاليسية البذرة الاولى للتفكير الاقرب الى المادية والواقعية، ورغم اختلاف المسيحيين أنفسهم في فهم طبيعة المسيح.
ذلك أنّه ليس من السهل على كل الناس أن يفهموا كيف يكون من الممكن أن يتحوّل انسان خاضع لطبيعة البشر بما تتضمّنه من ولادة ونموّ فموت الى كائن خارج عن قوانين الطبيعة يظهر في النوم بعد صلبه بأيام لبعض حوارييه ليعلن لهم أنّه حيّ خالد لا يموت. ورغم هذه النشأة "القيصريّة" لبعض الاديان فان الغريب فيها أنها يوم تتمكّن بفعل الزمن من نفوس الناس تكتسب لارتباطها بمصير الانسان ما ليس بامكان أي تجربة بشرية أن تكتسب.

تحدّث المعري في حيرة عن الأديان جميعها :

عجبت لكسرى وأشياعه — وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى اله يضام — ويظلم حيّا ولا ينتصر
وقول اليهود اله يحب — رسيس العظام وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد — لرمي الحجار ولثم الحجر
فوا عجبا من مقالاتهم — أيعمى عن الحقّ كل البشر

وتحدّث وليم جيمس (1842-1910) في كتابه: "البراغماتيّة" عن "المزاج العقلاني" و"المزاج التجريبي" فكتب: "إن تاريخ الفلسفة [والاديان والأدب والفن والسياسة...] إنما هو في جزء كبير منه تاريخ نوع من النزاع بين الامزجة البشرية" "ففي الفلسفة [وفي الأنشطة الانسانية الأخرى] نرى تباينا تعبّر عنه الصفتان "عقلاني" و"تجريبي". والصفة الأولى تلازم من يكون من الناس مسكونا بهذا الاطمئنان إلى المبادئ الخالدة والمطلقة في حين تلازم الثانية

من لا يطمئــن إلا إلى الأحـداث علـى تنوعهـا وتشـتتها. إن المزاج الاعتقـادي يتبدّى في كل ما يصدر عن العقلاني من تأكيدات. أمّا التجريبي فهو يبدو أكثر ميلا إلى الشكّ وإلى إخضاع كل شيء للنقد الحرّ"[21] علـى أن هـذا التعقيـد في المسيحية لا يفسّر بغـير ظهورهـا في فـترة وفي بيئـة ابتعدتـا كثـيرا عـن البسـاطة والفطرة.

كتب غوستاف لوبون (1841 – 1931) في ثمانينات القرن التاسع عشر، عصـر ازدهار الوضعية الفرنسـية، مقارنـا بـين المسـيحية الـتي ظهـرت في بيئـة فلسـفية صبغتها بتقيد بالغ وبين الاسلام "دين الفطرة" في لهجة يعجـب مـن قـرأ كتـاب لوبون (وكتبه الاخرى) كيف "استعصت" علـى حـسّ مـن ترجمـه مـن العـرب المسلمين الى العربيّة أكثر من مرّة [22]:

بامكان الاسلام أن يفخر بأنّه كان أوّل دين أدخل التوحيـد الصرف في العـالم. إنّ بساطة الاسلام الفائقة منبعها هذا التوحيد وعلينا أن نبحث عـن سـرّ قوّته في هـذه البساطة : انه قريب المأخذ وهو لا يعرض على معتنقيه أيّ سرّ ولا أيّ تنـاقض مـن هذه الأسرار والتناقضات الكثيرة الشيوع في عقـائد أخرى والـتي غالبـا مـا تصـدم العقل السليم. هو يقول باله مطلق الوحدانيّة على النّاس عبادته وأنّ كلّ النّاس أمامه سواء وبمبادئ قليلة يجب مراعاتها فالنعيم كثواب لم يتقيّد بها والجحيم كعقاب لمـن يتخطّاها. انه لا شيء بامكانه أن يكون أكثر وضوحا ولا شيء بامكانـه أن يكـون أرفع للبس. انّ أي محمّديّ مهما كانت مكانته الاجتماعية يعرف ما يجب أن يكـون عليه معتقده ويمكنه في كلمات قليلة أن يعرض في غيرما صعوبة أركان عقيدته. امّـا المسيحي فعليه اذا أراد المجازفة بـالحديث عـن الثـالوث وعـن استحالة القربـان (أي تحوّل خبز القربان وخمره الى جسد المسيح ودمه) وعن أيّ سرّ مشابه مـن الأسـرار أن يكون زيادة على صفته كمسيحي عالما باللاهوت، طويـل البـاع في كـلّ دقـائق الجدل"[23].

وفعـلا فـان المسـيحيين سينشـغلون طيلـة القـرن الثـالث (والقـرون الـتي تليـه) بصراعات دينيّة أظهرتهم كشتات ازاء الدولة الرومانيّة المعجبـة بطريقـة الدولـة

---

21 – William James - Le pragmatisme - Paris, 1968 - pp. 25, 27, 28 -

22- الحقيقة أن من ترجموه إلى العربية نهاية القرن التاسع عشر خاصة حذفوا منه ما لو نشر -عملا بالأمانة "العلمية"- لعلقوا بسببه على المشانق المعنوية والحبلية.

23 – Gustave Lebon - La civilisation des Arabes, 1959 - p. 79.

السّاسانيّة في قمع النبي ماني وأنصاره وتركيز الهرمزية الزرادشتية دينا رسميّا للدولة.

ان تعقيد الدين الجديد وتشتّت معتنقيه يرجعان كذلك الى ما تتّصف به أجزاء الامبراطورية الرومانيّة من خصوصيات واختلاف في مستوى التطوّر ومن ثمّ أشكال التقبّل الديني. وكانت مراكز الاشعاع المسيحي في هذه الفترة ثلاثة هي قرطاج والاسكندرية وأنطاكية حتى لا نتحدّث عن رومة التي كانت (وستبقى) تطمح الى الانفراد بشرعيّة التوجيه الديني تبعا لمكانتها السياسية في الامبراطورية هذه المراكز الثلاثة من الصعب أن يكون بامكانها لأسباب اجتماعية وثقافية وسياسية أن تتقبّل المسيحيّة (أو أي دين آخر) التقبّل نفسه وسيكون تاريخها الديني والسياسي محكوما بهذه الخصوصيات: ولذلك فبقدر ما بدا الشمال الافريقي قريبا من الامتثالية الدينيّة السنيّة لاسباب من بينها قرب قرطاج من الجزمة الايطالية (botte italienne) بدت الاسكندرية، التي تغلغل فيها التفكير اليوناني منذ فتحها اسكندر سنة 332 ق.م فركب تراثا فرعونيّا يحتفل بالموت احتفالا بالغا، موطنا لفكر تغلب عليه النزعة الافلوطينيّة التي تميل الى التوفيق بين الافلاطونية والمسيحيّة فتلقّص تبعا لذلك من طبيعة المسيح الانسان (الأرض، المادة، الطبيعة، السياسة، وما نشوء الرهبنة في هذه البلاد وانتشار ظاهرة "ختن" البنات في فترة ما من فترات التاريخ الا دليل اضافي على ذلك) وحتى تصل الى هذه الغاية كانت كثيرا ما تعمد الى قراءة باطنيّة للنصوص الدينيّة بحثا عن معنى أعمق من المعنى الذي تتيحه حروفها الظاهرة[24].

أمّا انطاكية مركز الاشعاع في سورية فكانت أكثر ميلا إلى الارسطوطاليسية لذلك فهي تميل الى فهم طبيعة المسيح فهما فيه الكثير من البشرية والارضية والمادية والطبيعية وذلك على الأقل في فترة من فترات النشأة الأولى[25] وحتى تصل إلى هذه الغاية كانت كثيرا ما تفضّل عند قراءة النصوص الدينيّة انتهاج طريقة نقدية دياليكتيّة قوامها اعتماد المعنى القريب والظاهر في

---

24 – Pierre Rondot - Les Chrétiens d'Orient, 1955 - p. 40.

25 – في فترة لاحقة ستهيمن المونوفيزية في بلاد الشام.

النصوص[26]. وهكذا فانه بامكان النزعة الاسكندرية الافلوطينيّة أن تبلغ في تأكيدها على وحدة شخص المسيح حدّ انكار طبيعتين فيه مختلفتين : واحدة انسانيّة وأخرى الهية. كما أنه بامكان النزعة الانطاكيّة الارسطوطاليسيّة أن تبلغ في تأكيدها علي اختلاف طبيعتي المسيح الانسانية والالهية حدّ رفض القول ان مريم هي أمّ الله.

ولسوف تشتدّ الخصومة بين المدرستين في القرنين الرابع وخاصة الخامس فيندرج أنصار الرؤية الأولى في من يسمّون بالمونوفيزيّين (نسبة الى من يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح) في كل من مصر والشام ويندرج أنصار الرؤية الثانية في من يسمون بالنساطرة في بلاد الرافدين وفارس... أمّا روما أولا وبيزنطة بعد انتقال مركز السلطة السياسية نهائيا إليها فستنسب إلى أنصار الأولى صفة الكاثوليك وإلى أنصار الثانية صفة الملكيين أوالاورثوذوكس.

هذا في ما يتعلّق بتأثير التراث الفكري القديم في طريقة تقبّل المناطق الرومانيّة المختلفة أوضاعا اقتصادية واجتماعية وتراثا ثقافيا ضاربا في القدم للمسيحية وهذه ظاهرة ستعرفها كل الديانات. ففي الاسلام مثلا اذا كان كل المسلمين يقولون نظريا بشروط الاسلام فهم على مستوى ما يضمّنون هذه المفاهيم من مضامين، يظهر السلوك اختلافها، يبدون أبعد ما يكونون عن الوحدة فبين اليمني والنجدي والمكي والمصري والشمال الافريقي حتى لا نتحدث عن الافغاني والاندونيسي من فروق الحس الديني ما لا يرفض القول به الا من يقول ان اسلام روجي غارودي واسلام هذا الذي فسّر احمرار لون مطر ملوّث بحرب سماوية بين المؤمنين والكفار هما اسلام واحد. أمّا ما ذكرنا من تعقّد هذا الدين فيمكن أن نضرب عليه مثلين : مثل النبي محمد الذي كان يحتفل ضمن تعادلية صعبة بالصلاة والعطر والنساء ومثل "أوريجينوس" الذي ذكرنا اطلاع الامبراطورة السورية جوليا دومنا بصورة شخصية أو بطريق المطالعة على فلسفته المتصلة بطبيعة المسيح : لقد بلغ زهد أوريجينوس في الدنيا حدّا دفعه إلى أن يجبّ نفسه ابتغاء قتل الطبيعة الارضية فيه وسعيا منه الى تحرير نفسه من قيد

---

26 - Rondot - Le chrétiens... p. 40.

الجسد. فسلوك أوريجينوس كان نابعا من تصوّره الخاص للمسيحيّة ولقضيّة طبيعة المسيح.

هذا اذن مثال على التعقيد البالغ في هذا الدين الذي ما كان ليتكثّف فيه التجريد العقلي لو ظهر في بيئة غير البيئة السورية المشبعة تراثا فلسفيّا وهكذا كان وضع المسيحيين في القرن الثالث: خصومات دينيّة بين أنصار الدين الجديد وخصومات بينهم وبين اليهود وخصومات بينهم وبين أتباع الوثنية الرسميّة. ولقد كانت الامبراطورية الرومانية ترقب بقلق تفتّت الوحدة العقدية في الامبراطورية في وقت عمدت فيه الدولة الشرقية الخصم إلى اعدام ماني حفاظا على دين الدولة الرسمي أي حفاظا على مركزيتها. لذلك لا يستغرب المرء أن يتّخذ الامبراطور دقيوس (248–251) سنة 250 اجراءات قمع ضدّ المسيحيين اضطرت الكثيرين الى الفرار من عسف السلطة ومنهم أهل الكهف الذين تحدّث عنهم القرآن (الكهف 18/8–25)[27]، أو أنّ يتّخذ بعد

27–"أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا، اذ آوى الفتية الى الكهف فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيّء لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا. نحن نقصّ عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربّنا ربّ السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا اذن شططا. هؤلاء قومنا اتّخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن فمن أظلم ممّن افترى على ا لله كذبا. واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا ا لله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربّكم من رحمته ويهيّء لكم من أمركم مرفقا. وترى الشمس اذا طلعت تزّور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات ا لله من يهد ا لله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليّا مرشدا. وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لولّيت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا. وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أوبعض يوم قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطّف ولا يشعرنّ بكم أحدا. انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملّتهم ولن تفلحوا اذن أبدا. وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعد الله حقّ وأنّ الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربّهم أعلم بهم قال الدين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجدا سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربّي أعلم بعدّتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الامراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ولا تقولنّ لشيء اني فاعل ذلك غدًا الا أن يشاء

فترة تسامح نسبي امبراطور آخر هو ديوقلتيانس(284 – 305) تدابير ضدّ المسيحيين أقسى ممّا اتخذ دقيوس:

> أثار هذا الامبراطور أعنف اضطهاد وأقساه في تاريخ الكنيسة فاصدر تباعا أربعة أوامر يقضي أولها بهدم الكنائس ومصادرة الكتب والأنية المقدّسة ومنع المسيحيين من شغل وظائف في الدولة ويقضي الثاني بسجن الاكليروس بينما يوضّح الثالث مصير المساجين ويتوّج الرابع هذه التدابير بالحكم بالموت أو التعذيب أو النفي الى المناجم على الذين يمتنعون من تقديم القرابين للآلهة[28].

لقد بقي هذا الامتحان في التراث الفكري والأدبي المسيحي مثالا مزدوجا على جبروت الرومان الوثنيين واستماتة المسيحيين في الدفاع عن دينهم. نظم الشاعر الرومي الكاثوليكي الغساني اللبناني خليل مطران (1871 – 1949) في احتفال أقامه الاقباط المونوفيزيون تخليدا لذكرى شهدائهم :

ا لله واذكر ربّك اذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربّي لأقرب من هذا رشدا. ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا. قل ا لله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والارض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من وليّ ولا يشرك في حكمه أحدا" لولّيت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا. وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أوبعض يوم قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطّف ولا يشعرنّ بكم أحدا. انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملّتهم ولن تفلحوا اذن أبدا. وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعد الله حقّ وأنّ الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربّهم أعلم بهم قال الدين غلبوا على أمرهم لنتخذنّ عليهم مسجدا سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربّي أعلم بعدّتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الامراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ولا تقولنّ لشيء اني فاعل ذلك غدًا الا أن يشاء ا لله واذكر ربّك اذا نسيت وقل عسى أن يهديني ربّي لأقرب من هذا رشدا. ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا. قل ا لله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والارض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من وليّ ولا يشرك في حكمه أحدا"

28 – ع. الشرفي ـ الفكر الاسلامي ص 83.

صبروا على جبروت عات قاهر ساء النهى والدين كل مساء

ما كان "دقلتيان" الا طاغيا ملك الرقاب بغلظة وجفاء

لانت له الصمّ الصلاد ولم تلن شيئا قلوب الصفوة الفضلاء[29]

ولكن أيّ دولة بامكانها أن تعارض تيارا دينيّا تغلغل في المجتمع حتى العظم وشدّ اليه حتى بعض كبار الساسة وكان يستجيب أكثر من الوثنية الى روح العصر المتجهة بحتميّة نحو التوحيد... انّه لن تحين سنة 313 حتى تعلن الدولة الرومانيّة عن قرارها بضمان حريّة المعتقد. وهذا القرار لن يكون في حقيقة الأمر غير الخطوة الاولى نحو تبنّي الامبراطورية الرومانية ذاتها دين من اضطهدتهم طيلة ثلاثة قرون.

هكذا اذن انتصرت الدولة الساسانية على المانوية وانتصرت المسيحيّة على الدولة الرومانية فكيف كان وضع العرب في مشارف هذه الأراضي الزاخرة بالصراع العقدي في القرن الثالث؟

يقع العرب في منطقة ان لم تتعرّض قبل تنصّر الدولة الرومانية في القرن الرابع إلى تأثير التيارات الدينيّة المتصارعة بشكل حاد فانها لم تكن في بعض المناطق المتاخمة للامبراطوريتين في منعة من تأثير هذه التيارات منذ القرن الثالث الميلادي. فإمارة الحيرة التي زامن قيامها قيام الدولة الساسانية اذا كان أمراؤها على العموم وثنيين إما عن عقيدة صادقة أو تجنّبا لما يمكن أن يثيره اعتناق المسيحية من تحفظ حماتهم الساسانيين المزديين، فان بعض أفراد حاشية الامراء اللخميين كانوا نصرانيين منذ فترة مبكرة اشتهروا في كتب التاريخ باسم العباد. نقول أمراءها على العموم لانّه وجد من بين هؤلاء من حمى المانويين المضطهدين في ايران كعمرو بن عديّ (260-273) ومن تنصّر كابنه امرؤ القيس بن عديّ (274-328) الذي تسبّب تشيّعه للرومان في فساد العلاقة بين الساسانيين واللخميين. كتب ابن خلدون عن العباد :

---

29 - خليل مطران ـ الديوان، ج 01 ص 80.

ثم رجع أرديشر (225-241) إلى أمر العرب وكانت بيوتهم على ريف العراف ينزلون الحيرة، وكانوا ثلاث فرق : الاولى تنوخ (...) وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ويضعونها غربي الفرات بين الانبار والحيرة وما فوقها فأنفوا من الاقامة في مملكة أردشير، وخرجوا الى البريّة. والثانيّة "العباد" الذين كانوا يسكنون الحيرة أو وطنوها، والثالثة الاحلاف الذين نزلوا بهم من غير تسبهم، لم يكونوا من تنوح الناكثين عن طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا بهم فملك هؤلاء الاحلاف الحيرة والانبار وكان منهم عمرو بن عدي وقومه فعمروا الحيرة والأنبار"[30].

وأمّا عمرو بن عديّ هذا فكتب عنه ابن خلدون :

ولّما ملك عمرو بن عدي ولي بعده على العرب وسائر من بادية العراق والحجاز امرؤ القيس بن عمرو بن عديّ ويقال له البدء وهو أوّل من تنصّر من ملوك آل نصر وعمال الفرس"[31].

وكتب في موضع آخر عن خليفته امرئ القيس:

وملك سابور لثلاثين سنة من ملكه وولي بعده ابنه هرمز فملك سنة واحدة وولي بعده ابنه بهرام بن هرمز (273-276 : هذا الذي قتل ماني سنة 276) وكان عامله على مذحج من ربيعة ومضر وسائر بادية العراق والجزيرة والحجاز امرؤ القيس بن عمرو بن عدي وهو أول من تنصّر من ملوك الحيرة وطال أمد ملكه" (الى سنة 328)[32].

والإتفاق حاصل على أن العبّاد كانوا نصارى منذ فترة مبكرة : فلقد تسربت المسيحيّة الى الامبراطورية الساسانية ومن ضمنها بلاد الرافدين بشكل تؤكّده فلسفة ماني المشبعة غنوصية ومسيحية في نفس الآن.

واذا كانت المسيحية قد بلغت في انتشارها بلاد الرافدين الساسانية فليس من الغريب أن تكون أكثر انتشارا في المناطق الواقعة في منطقة النفوذ الروماني ومنها الشام الذي هيمنت على جزء منه مملكة تدمر في فترة اولى ثم تاقت ملكة هذه المملكة زينوبيا في ستينات القرن الثالث الى الاستقلال به جميعه عن الامبراطورية الرومانية فليس بامكان من يؤرخ لهذه الفترة أن لا يتعرّض لبولس

30 – ابن خلدون ـ كتاب العبر، ج 3، ص ص 341 ـ 342.

31 – المرجع السابق ـ ص 548.

32 – المرجع السابق ـ ص 345.

السميساطي وزير الملكة زينوبيا (267 - 272) في تدمر: هذه الملكة لم تكون مسيحية ولكنها كانت تأخذ بمذهب تأليفي وكان ابنها وشريكها في الحكم يسمى وهب اللات (أي هبة اللات، واللات والعزى ومناة طيور بحرية) على عادة الوثنيين ولكنها حمت طيلة فترة حكمها مستشارها السياسي وخازن المملكة بولس السميساطي حتى عندما أدانه مجمع انطاكية وأقاله من منصبه الديني لـ "هرطقته" وقوله ان المسيح استحال الها (أي لم يكن كذلك في الأصل) بما تحقّق عنده من تلاؤم بين ارادته واتحاد حبّه للآب.

وتشير كثير من المصادر والمراجع المتعلقة بهذه الفترة الى الجهد الذي بذله أوريجينوس (186 – 254) في سبيل العودة ببعض "الهراطقة" العرب في بُصرى وشرق الاردن والعربيّة الصخريّة الى النهج الديني الصحيح وقد اضطر أكثر من مرة الى الانتقال من الاسكندرية الى بلاد العرب تحقيقا لهذا الغرض. ان هذا لا يعني أن المسيحية قد انتشرت بشكل كبير في الجزيرة ولا أنها قد حملت حتى في الجيوب التي انتشرت فيها قدرا كبيرا من العمق الفكري ولا أنها لم تكن تجاور عبادة الاوثان اذ لا يمكن للناس حتى عندما يتبنّون مفاهيم جديدة أن لا يحتفظوا بقدر كبير أو صغير من مضامين تراثهم السابق. ومع ذلك فيمكن للمرء أن يبدي في ما يتعلق بهذه المسألة بعض الملاحظات :

أولا: ميل العرب ممن نبذوا الوثنية في بلاد الرافدين خاصة الى المسيحية وانصرافهم عن المزدية رغم ارتباطهم السياسي بالساسانيين وأسباب ذلك كثيرة ولكن يمكن القول انّه قد برز حتى عند بعض الايرانيين ميل الى المسيحية واعراض عن المزدية منذ عهد ماني فكأنّ هذه الدعوة الدينية كانت تشي بعدم ملاءمة المزدية لروح القرن الثالث : وسيبذل الايرانيون بعد سقوط الدولة الساسانية بقرون جهدا كبيرا لاستعادة شخصيتهم السياسية واللغوية ولكنهم لن يبدوا رغبة مماثلة في ما يتصل بالمزدية...

ثانيا: بغض النظر عن تعايش المسيحية والوثنية عند بعض القبائل العربية فالملاحظ أن المسيحية سوف تتسرب في هذه الفترة المبكرة الى العرب الجنوبيين أكثر من سواهم لقرب مواطنهم من حلبة الصراع العقدي وعلى العكس من

ذلك فان جزءا كبيرا من القبائل العدنانية ستبقى الى فترة متأخرة على وثنيّة شاذة اذا ما قيست الى تطور أمم أخرى.

ثالثا: ان المرء لن يعدم حتى القرن السابع قبائل عربية مازالت تعبد الاوثان من ودّ (كلب بدومة الجندل) الى سواع (هذيل بينبع) الى يغوث (أنعم من طيء وأهل جرش) الى سعد (ملكان بجدّة) الى مناة (الاوس والخزرج) ... ولكن ذلك لا يعني أن العرب لم يعرفوا منذ هذه الفترة بداية تفتّت في النظام العقائدي الذي كان قائما في منطقتهم وسيدفع تنصّر الدولة الرومانيّة في العقود الاولى من القرن الرابع أعدادا متزايدة من العرب إلى النصرانية وإن في أشكالها الوطنية الهرطقية (النسطورية في الحيرة والمونوفيزية في بصرى).

رابعا: يمكننا مع بعض التحفظ ازاء الفترة التي قال هافنيث Havenith إن المسيحية انتشرت فيها في بعض القبائل العربية أن نأخذ برأيه في ما ذهب إليه من تحديد للقبائل العربية التي انتشرت النصرانية في صفوفها :

> يمكن أن نذكر من هذه القبائل تغلب ونمير وبهراء وتنّوخ واللخميين وان كان أمراء هؤلاء قد بقوا وثنيين لفترة طويلة والغسانيين بطبيعة الحال. أما اياد فمازالت في أغلبها وثنيّة. وفي شمال الجزيرة العربية كان الكلبيون وجذامة في أغلبيتهم نصارى وليس ذلك شأن طيء التي لم تتنصرا لا في جزء منها. وقد تعرضت يمامة وحنيفة في وسط الجزيرة الى التأثير المسيحي كما تعرض لذلك وان بقدر أقل كل من تميم وعبد القيس. وكان للنازلين في البحرين وعمان كنائس مزدهرة شأنهم في ذلك شأن قبائل الحرث وكندة في الجنوب العربي وكذلك سكان جزيرة سوكوترة[33].

---

33 – Havenith (Alfred) - Les Arabes chrétiens nomades au temps de Muhammad, 1988 - p. 55.

الـفـصـل الثالث

بيـن قسطـنطـين وسابـور "ذي الاكتاف".

مكن تنصر الدولة الرومانية الدين المسيحي من قدرات تبشيرية ضخمة فازداد انتشارا في منطقة النفوذ الروماني وبلغت دعوته أمما جديدة في المناطق القريبة من هذا النفوذ. وأفضل مثال يمكن أن يضرب على هذا الانتشار هو تنصر الحبشة نتيجة النشاط التبشيري المصري واجتهاد المسيحيين في تنصير اليمن:"

فنحن نعرف أن جنوب الجزيرة قد تنصر منذ القرون الأولى. وقد روى روفين Rufin قصة تنصير المملكة الحميرية بين 326 و 360 م. لقد أراد ميروبيوس Méropius أحد فلاسفة مدينة صور استكشاف هذا البلد رفقة شابين هما أيدسيوس Aedessius وفرومينتوس Frumintius. وفي أحد الموانئ قتل السكان ميروبيوس وبعثوا أيدسيوس وفرومينتوس أسيرين إلى الملك انتقاما لحلف نقضه الرومان. وقد نال فرومنتيوس ثقة الملك عمرو وأصبح سكرتيره. وبعد موت الملك اعتنى بابنه وأصبح مستشار الملكة بلقيس. وقد انتهز هذا المقام العلي لنشر الانجيل فسامه القديس أتاناس Athanase بطريك الاسكندرية اسقفا للملكة [1].

وإذا كانت هذه الاخبار تتحدث عن تبشير سلمي فمن الاخبار كذلك ما يفيد أن التبشير أتخذ اضافة إلى الشكل السلمي شكلا عسكريا بحتاً:

فقد يكون ملك أثيوبيا قد استولى سنة 345 تقريبا على اليمن وعيّن عليها حاكما فتنصّر السكان وبنوا لهم كنائس كثيرة [2].

1- Havenith, Les arabes chretiens nomades, ص 65.

2- المرجع السابق، ص 65.

فالاجماع حاصل حول ما كان لنجاح مسيحي مصر في تنصير الحبشة من أثر كبير في تأجيج صراع ملك الملوك الحبشي (النجاشي Négus) ضد الدولة السبئية التي انقسم سكانها إلى متنصرين ومتهودين ووثنيين. وقد انتهى الضغط المسيحي الحبشي بالهيمنة على جزء من البلاد فتلقّب الملك الحبشي بلقب ملك (أكسوم وحمير وريدان وحبشة وسلع وتهامة)[3]

إن ما قيل عن الحبشة وعن حمير في هذه الفترة يمكن أن يقال عن بعض القبائل العربية شمال الجزيرة وعن أجناس أخرى تقع مواطنها قريبا من منطقة التأثير الروماني. غير أن انتشار المسيحية بهذا الشكل السريع على عهد قسطنطين (306-337) وخليفته كونستانس الثاني (337-361) في بيزنطة وخليفته كونستانس الأول في روما (337-350) إذا كان يخدم الكنيسة والدولة الرومانيتين في الأمد البعيد فإنه لم يكن ليخدمها على المدى القريب ذلك أن الغوط (Goths) كانوا قد تجمعوا في هذه الفترة بفرعيهم اللاحقين الاستروغوط (Ostrogoths) والفيزيغوط (Wisigoths) على حدود الامبراطورية الرومانية الاوروبية الوسطى واتخذوا وهم يتنصرون من الاريوسية التي تنفي ألوهية المسيح مذهبا لهم. وفعلا فإن الاسقف الاريوسي أوليفلاس (Ulfilas) قد تمكّن من نشر هذا المذهب بينهم وصاغ لهم كتابة ولغة سوف تمكنانهم من دعم خصوصيتهم الجنسية بخصوصية دينية لغوية وستحول دون قدرة بيزنطة وروما على ابتلاعهم وتفتح الطريق إلى الخصوصية القديمة الحديثة التي تفرق بين اللاتين (Latins) والشعوب السكانديناڤية الانكلوساكسونية.

لقد كانت الاريوسية بسبب توفر هذه المقوّمات الثلاثة أكبر خطر هدد المسيحية السنية فأريوس Arius القس الليبي (توفي سنة 336) يذهب في فهم طبيعة المسيح مذهبا دفع سيد قطب المصري زعيم الأخوان المسلمين إلى أن

3- النجار، علاقة... ص 13.

يرى فيه أصلح معبّر عن المسيحية القويمة[4] ودفع أحد المختصين في دراسة الاسلام المعروفين إلى أن يقول قبل سيد قطب "أن أفكار الاريوسية المتعلقة بشخص المسيح كانت مطابقة تقريبا لما ستكون عليه أفكار الاسلام"[5] ذلك أن آريوس يرى أن ا لله واحد أحد لم يولد وليس في الامكان أن يبث جوهره (substance) في مولود. فكل شيء باستثناء ا لله الواحد إنما خلق بإرادة منه يقول له كن فيكون. وانطلاقا من هذا الفهم ليس بإمكان الكلمة (Le Verbe) أن يكون أكثر من مخلوق ميزته، حسب آريوس، أنّه خلق قبل العالم وقبل الزمن. ويوضح آريوس قوله الأخير "قبل الزمن" دفعا لكل تأويل تأليهي للمسيح: "لقد كان زمن لم يكن فيه الكلمة موجودا". وإذن فالمسيح مخلوق وسط بين ا لله والبشر وليس بإمكان البنوة أن تكون إلا بالتبني "فهو أقل منزلة من ا لله وإن كان أكمل من وجد ضمن المخلوقات"[6]. إن مذهب آريوس يعني نفي ألوهية المسيح.

والحقيقة أن اعتناق الغوط هذا المذهب يثير قضية المضامين الدينية (وغير الدينية) التي تفرغها الأمم المختلفة في ما يعرض عليها من مفاهيم. وهذه المضامين تختلف من أمة إلى أخرى لاختلاف تاريخها وثقافتها. وحتى في المجتمعات المعاصرة التي استفادت من تطور التقنية وانتشار التعليم، يصعب على المرء أن يقرّ أن القوم في تونس (وما تتضمنه من مرتبية في الثقافة والوعي) وفي فرنسا وفي كينيا وفي انجلترة يضمّنون مفهوم المجتمع المدني مثلا المضمون نفسه وذلك بالرغم من أن الجميع يرددونه صباح مساء. وقد يكون لبعد القوط عن البيئة الشامية المصرية التي تشعب الجدل الفلسفي فيها أثر في اتجاههم إلى اعتناق هذا المذهب القريب من الفطرة.

وعندما سيتمكن الوندال مثلا من حكم شمال افريقية طيلة قرن من الزمان (429-533) فإنهم سوف يفرضون هذا المذهب فرضا فلا ينقرض إلا

4- Havenith, les arabes

5- Gaudefroy-Demourbynes et autres: L'Islam et la politique contemporaine, 1925, p: 10.

6- Paul Lemerle: Histoire de Byzance, p: 19.

بانقراضهم. على أن أثره قد يكون بقي حيّا عند جماعات من البربر فسهل عليها اعتناق الاسلام.

ويكاد المرء يستغني عن القول ان المسيحية السنية في بيزنطة وروما وغيرهما من مراكز النشاط الديني المسيحي لا يمكن أن تقر موقف الاريوسيين. أما قسطنطين فقد كان كرجل سياسي أكثر انشغالا بتأثير هذه الانقسامات الدينية على قوة الدولة لذلك دعا إلى عقد مجمع مسكوني (Oecuménique) أي عالمي نسبة إلى المسكونة أي الأرض في نيقية (Nicée) سنة 325 اعتبر أول مجمع مسيحي عالمي للبت في هذه القضية. وقد انتهى المجمع إلى الإقرار أن "الابن هو من طبيعة الآب" أي إلى إدانة الآريوسية.

لقد كان لهذا الحدث أهمية بالغة إذ أنه من ناحية أدان الآريوسية التي لم تكن مجردّ تعبير عن رأي ديني تقول به أقلية، بل كان تعبيرا عن "قراءة" للدين ضاربة في الفكر الفلسفي القريب من الطبيعية ولذلك فإن هزيمتها الرسمية سنة 325 لم تكن إلا هزيمة مؤقتة إذ كان يعتنقها القوط وستتكون في بيزنطة نفسها مراكز قوى أريوسية، بل أن الامبراطور فالنس Valens (364–378) خليفة ابن قسطنطين نفسه سيعتنق هذا المذهب إما عن إيمان وإما مجاراة للضغط القوطي. من ناحية ثانية حدد هذا المجمع بشكل فظ العلاقة بين السلطة الزمنية (الامبراطور) والروحية (الكنيسة) تحديدا يخضع المجال الديني لمصلحة الدولة:

> فأهمية المجمع ليس مردها فحسب إلى انه وهو يصوغ لأول مرة في تاريخ الكنيسة عقيدة الثالوث قد وضع أسس الديانة المسيحية العقدية ولكن يردّ كذلك إلى أن السلطة الامبراطورية قد تدخلت لأول مرة في مسألة عقدية فتحددت انطلاقا من ذلك كل العلاقات اللاحقة بين السلطتين الزمنية والروحية. وإذ أؤكد على لفظ الزمنية فذلك لأن قسطنطين تدخل في المسألة على اعتبار أنه سلطة زمنية فحسب بل يمكن القول أنه تدخل كسلطة بوليسية إذ لا يبدو أنه كان يهدف إلى غير الحفاظ على السلم والنظام داخل الكنيسة المسيحية التي أصبحت جهازا من الأجهزة الهامة في الامبراطورية[7].

7- Paul Lemerle: Histoire de Byzance, p: 19.

وإضافة إلى هذين الناحيتين، دفع اتجاه السلطة الزمنية إلى ضبط مجال النشاط الديني إلى تحديد منزلة كل مركز من المراكز الدينية في الامبراطورية فتنزّلت كل من الاسكندرية وانطاكية في المنزلة الأولى وتلتها القدس في المرتبة. وإذا كانت القسنطينية قد "تعالت" عن هذا التنافس فإن وضعها في بيزنطة مقرّ إقامة قسطنطين كان يفي بالطلب. ومن الطبيعي أن لا تنظر روما (وتابعتها قرطاج) بعين الرضا إلى هذه المرتبية التي ستكون لها نتائج خطيرة على العلاقات الدينية بين مراكز المسيحية في القرون اللاحقة[8]. فهل يمكن الحديث هنا، والحال على ما وصفنا عن "أعمال قسطنطين" باللغة التمجيدية التي يستعملها كثير من الديانيين واللائكيين عندما يتحدثون عن أعمال قسطنطين.

إن استعراض أهم الأحداث في عصر خليفتيه في بيزنطة كونستنس (337–361) وجوليان الجاحد (361–363) وفالنس (364–378)) وفي رومة كونستان الأول (337–350) وخلفائه، حريّ، إضافة إلى ما استعرضنا من خصومات دينية بتقييم هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الأمبراطورية الرومانية ومن ثم بيان ردة فعل تيودوس (379–395) على ما بدا له من انهيار روماني شامل. ففي ايطاليا قتل فالنس وهو يحاول التصدي لضغط الفيزيغوط أما أخوه فالنتيان الأول (364–375) فقد اضطر إلى الإقامة بميلانو قريبا من منطقة ضغط البرابرة الجرمانيين ولم يتمكن إلا بصعوبة ولفترة وجيزة من صدّ هجماتهم وسيقتل أحد الضباط الافرنج خليفته فلنتيان الثاني (375–392) في محاولة لفرنجة الامبراطورية.

أما في الشام فالمصادر تتحدث عن ضعف روماني سمح بتمرد أميرة عربية لا يشبهه إلا ما حدث قبل قرن في تدمر على عهد زنوبيا:

فقد اعلنت ماويّة التي كان زوجها حليف الامبراطور فالنس (364–378) بعد أن ترملت بين 373 و 374 الحرب على الرومان وانتصرت عليهم في فلسطين وفينيقيا

8- Pierre Rondot: Les chretiens d'Orient. p: 35.

بل أخضعت الشمال الشرقي المصري وهزمت قائدا رومانيا دعي لتعزيز الجيش الروماني واضطرت رومة إلى اجراء مفاوضات معها تحقيقا للسلام[9].

إنه ليمكننا أن نصدر ما يشبه القانون السياسي فيما يتعلق بوضع العرب المحكوم بتوازن القوتين العظميين. فكل ضعف يلحق احداهما أو يلحقهما معا تنجر عنه حالة فوضى في الجزيرة العربية. ولا يوجد استثناء لهذه القاعدة إلا عندما تمكن النبي والقائد السياسي محمد في القرن السابع من تهيئة العرب لاستغلال ناجح لضعف القوتين العالميتين فأحلوّا محلهما الدولة العربية الإسلامية.

وتبعا لذلك يمكن ان نستنتج أنه وقد وصل وضع الرومان في الشام إلى حد تمكنت فيه أميرة عربية تابعة لهم من التمرد عليهم والحاق الهزائم ببعض كبار قادتهم العسكريين لا بد أن يكون قد حدث ما يشبه ذلك في اليمن.

وفعلا فإن اليمنيين سوف يستغلون هزائم الرومان في الشام وما انجر عنها من تقلص دعم الرومان للحبشة الحليفة، لاعلان ثورتهم على الاحباش والانتصار عليهم سنة 375 بقيادة ملكي كرب بل سيرتدّون عن المسيحية مدفوعين بنوع من "الوطنية' لأن هذا الدين ارتبط في أذهانهم بصورة الغزاة الأحباش. فقد توجه خليفة ملكي كرب، أبو كرب أسعد (تـ 425) سنة 400 "إلى المدينة (يثرب) لكي يتهود وكانما كان مدفوعا إلى ذلك برغبة في مناوأة الدين الجديد الذي دانت به الحبشة عدوّ بلاده وخصمها العنيد"[10].

إن حالة الانهيار الروماني الشامل نهاية القرن الرابع كان يمكن أن تمثل فرصة تنتهزها الامبراطورية الساسانية لقضم أجزاء شاسعة من منطقة النفوذ الروماني لو كانت على قدر من القوة يسمح بذلك ولكنها لم تكن كذلك إذ كانت كالرومان تشكو انخراما داخليا ورغم هذا الوضع المتردي في الدولتين فإنهما لم تكفا عن الصراع طيلة هذه الفترة.

9- Havenith: Les Arabes..., p. 52

10- النجار، علاقة... ص 13.

لقد ورث سابور الثاني (310-379) معاصر قسطنطين، المشهور عند العرب بـ"ذو الأكتاف"، عرشا ساسانيا لا يذكّر كثيرا بما كانت عليه الدولة الساسانية طيلة نصف القرن الذي حكم فيه اردشير وسابور الأول. وقد تجلّى هذا الوضع حتى في امتداد فترة حكم من خلفوا هذين الشاهين المؤسسين: فإذا كان سابور قد حكم البلاد ثلث قرن فإن خلفاءه الخمسة هرمز (272-273) وبهرام الأول قاتل ماني (273-276) وبهرام الثاني (276-293) ونرسيس (293-302) وهرمز الثاني (302-309) لم تتجاوز فترة حكمهم أجمعين فترة حكم سابور الأول بكثير.

وقد زاد الوضع سوءا أن سابور الثاني لم يكن وهو يتسلم الحكم إلا طفلا في وصاية أمه التي كانت تسير شؤون الدولة مستعينة بكبار رجال البلاط الساساني الذين تركزت سياستهم على الدفاع عن حدود الامبراطورية المهددة من الجهات الأربع. ففي الشمال والغرب اشتد الضغط الروماني (على الرغم من ضعف الدولة الرومانية) وتعددت وجوهه بعد تنصّر الدولة فأعلن تريدات (294-324) ملك أرمينية استقلال بلاده عن الساسانيين بعد أن اعتنق المسيحية فضمن دعم الرومان. وفي الشرق اشتد ضغط الترك على بلخ (باكتريان). أما في الجنوب فقد تقلص دور إمارة الحيرة نتيجة ضعف الدولة الساسانية الحامية وانجرّ عن ذلك ضغط بدوي عربيّ على الحدود الساسانية. كتب ابن خلدون في ذلك:

> وشاع في اطراف المملكة أنهم (يقصد الساسانيين) يولّون صبيا في المهد فطمع فيهم الترك والروم. وكانت بلاد العرب أدنى بلادهم وهم أحوج إلى تناول الحبوب من البلاد لحاجتهم إليها بما هم فيه من الشظف وسوء العيش. فسار منهم جمع من ناحية البحرين وبلاد القيس ووحاظة فأناخوا على بلاد فارس من ناحيتهم وغلبوا أهلها على الماشية والحرث والمعايش، وأكثروا الفساد ومكثوا في ذلك حينا و لم يغزهم أحد من فارس ولا دافعهم لصغر الملك[11].

11- ابن خلدون، العبر، ج3 ص 347-348.

هذا الخطر الذي يتهدد الدولة الساسانية على حدودها الأربعة هو الذي حدّد سياسة سابور الثاني منذ تسلم الحكم بصورة فعلية أي في ثلاثينات القرن الرابع فشرع في دفع هذا الخطر مبتدئا بالعرب البدو لقربهم من عاصمته:

وكان أول شيء ابتدأ به شأن العرب فجهز إليهم العساكر وعهد إليهم أن لا يبقوا عل أحد ممن لقوا منهم. ثم شخص بنفسه إليهم وغزاهم وهم غازون بلاد فارس فقتلهم أبرح القتل وهربوا أمامه وأجاز البحر في طلبهم إلى الخط وتعدى إلى بلاد البحرين قتلا وتخريبا ثم غزا بعدها رؤوس العرب من تميم وبكر وعبد القيس فأثخن فيهم وأباد عبد القيس ولحق فلهّم بالرمال ثم أتى اليمامة فقتل وأسر وخرّب، ثم عطف إلى بلاد بكر وتغلب ما بين مملكة فارس ومناظر الروم بالشام فقتل من وجد هناك من العرب وطمّ مياههم[12]

وتذكر بعض كتب الأدب أن سياسة سابور الثاني إزاء العرب كانت منتظرة لم تفاجئ المعاصرين إذ أن كل ضعف في الدولتين الساسانية والرومانية ينجر عنه مدّ عربي نحو مناطق الشمال الخصبة فهذا لقيط بن يعمر الشاعر الايادي الذي كان في خدمة الساسانيين يبعث على ما تروي الأخبار القديمة إلى قومه قبل الواقعة محذّرا:

يا أيها الراكب المزجي مطيته   إلى الجزيرة مرتادا أو منتجعا
لا تلهكم إبل ليست لكم إبل   إن العدو بعظم منكم قرعا

إن اتساع حملة سابور تؤكد ما ذهب إليه المؤرخون من أن مملكة الحيرة فقدت دورها منذ موت أمرئ القيس بن عدي في النمارة بعد انضمامه إلى الرومان (ت 328) ولن تستعيد هذا الدور إلا في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس على عهدي النعمان السائح (ت 418) وابنه المنذر (418-452).
هذا الفراغ هو الذي عبر عنه ابن خلدون عندما كتب:

ولي مكانه (يقصد امرئ القيس) أوس بن قلام العمليقي (...) ثم سار به جحجبا بن عتيك بن لجم فقتله وولي مكانه(...) ثم ملك ...[13].

12- المرجع السابق ص 348
13- المرجع السابق ص 349.

هكذا حاول سابور الثاني نشر سلطة الساسانيين من جديد في الخليج وما بين النهرين حتى الجزيرة. ولقد ضمّ البحرين إلى ممتلكاته ولكنه لم يتمكن من إخضاع عرب هذه المناطق إخضاعا تاما إذ سنجدهم ينضمون إلى يوليانوس الجاحد (361-363) عندما هاجم سابور الثاني "لثأرهم عند سابور بمن قتل منهم (...) فأحجم عن اللقاء وصجبه العرب ففضوا جموعه وهرب في فلّ من عسكره"[14]. بل إننا نعثر على وقائع لهم ضد الساسانيين على عهد خلفاء سابور الثاني، أردشير الثاني (379-383) وسابور الثالث (383-388) الذي كانت له مع إياد حرووب ذكرها شاعرهم في قوله:

على رغم سابور بن سابور أصبح   حت قباب إياد حولها الخيل والنعم

إنه لا سبيل إلى فهم انكفاء النفوذ الساساني في بلاد العرب إلا بالتذكير بما كانت تتعرض له الامبراطورية من ضغط على كل الحدود. وإذا كانت الحروب الرومانية الساسانية المتتالية (345، 363) ستفضي إلى عقد صلح بين سابور الثاني وجوفيان (363-364) يمكن الدولتين من التفرغ للدفاع عن حدودهما، فإن النشاط الروماني لخنق الاقتصاد الساساني لن يتوقف وقد اتخذ له أثناء فترة الصلح وسيلة جديدة تتمثل في التسلل إلى اليمن عن طريق الأحباش المونوفيزيين. وإذن فإن اضطرار سابور الثاني الدفاع عن الامبراطورية الساسانية على كل الجهات وسعيه إلى منع اكتمال عملية التطويق الاقتصادي هما اللذان يفسران إلى حد كبير ارتخاء اليد الساسانية إزاء قبائل البدو العربية ونتيجة لذلك ضعف إمارة الحيرة.

وإذا كان هذا وضع سابور الثاني الذي "كان يخلع أكتاف العرب ولذلك لقبه العرب ذو الأكتاف"[15] فبالامكان أن يتصور المرء وضع خلفائه أردشير الثاني (379-383) وسابور الثالث (383-388) وبهرام الرابع (388-

14- المرجع السابق، ص 350.
15- المرجع السابق، ص 349.

399) الذين كانت فترة حكمهم فترة باهتة مقارنة بفترة حكم سابور. فلقد حكم الأول البلاد مدة أربع سنوات كانت مثالا للضعف من ناحية ولردود الفعل الدينية على سياسة تيودوس التبشيرية من ناحية ثانية. أما سابور الثالث فقد حكم البلاد خمس سنوات اتسمت بالضعف كذلك وكان مصيره القتل. ولم يختلف مصير بهرام الرابع عن مصير أخيه فضربا بحياتهما مثالا واضحا عن الفرق الشاسع بين ما كان عليه أبوهما سابور من قوة وهيبة وامتداد فترة حكم وما كانا عليه من ضعف وقصر فترة حكم بل ضربا مثلا على شبه القاعدة التي تقول إنه ما امتد سلطان ملك قاهر في الزمن إلا قصّر ذلك من سلطان خلفائه لأن الحكم القاهر الطويل لا يسمح بنمو نبت سياسي حنكته التجربة فيرث الحكم وينميه. لذلك لن يستقر الحكم الساساني إلا على يد يزدجرد الأول (399-420) هذا الذي تسميه العرب "يزدجرد الأثيم" وقد لا يكون له من "الأثم" غير سعيه إلى تجديد الدولة فاستقرت على عهده وباستقرارها عادت الحياة إلى إمارة الحيرة فبرزت شخصية النعمان الأكبر (ت 418) المشهور بألقاب "الأعور" و"السائح" و"صاحب الخورنق" وكذلك شخصية ابنه المنذر (418-452) الذي كان له شأن في سياسة ايران الداخلية (تولية بهرام الخامس) والخارجية (مشاركته في حرب الروم 421-422). وخمدت غزوات العرب البدو في المنطقة إلى حين. وإذن فإنه يمكن القول أن حكم كل من تيودوس ويزدجرد لم يكونا غير محاولة لاعادة التوازن المفقود إلى كلا القوتين العظميين.

الفصل الرابع

هيمنة القوى النابذة

إن حالة الانهيار الروماني الشامل نهاية القرن الرابع الميلادي هي التي تفسر سياسة تيودوس (379-395) الزمنية والدينية المتشددة. فقد حاول منذ أن تولى الحكم سنة 379 ان يحدّ من تردّي هذا الوضع فحافظ على التشريع في جزئي الامبراطورية الغربي وعاصمته روما والشرقي وعاصمته بيزنطة. ولكنه وزّع الحكم في الجزئين على ابنيه هونوريوس (395-423) في روما وملحقاتها الافريقية، خاصة وأركاديوس (395-408) في القسطنطينية وملحقاتها الشامية والمصرية.

هذا التشبث بوحدة التشريع في جزئي الامبراطورية عاضده تشددّ تيودوس في الحفاظ على الوحدة الدينية إذ كان هذا الامبراطور يؤمن إما عن إيمان صادق أو عن سياسة (جريا على القاعدة التي سنّها قسطنطين) أن لا حق لغير الدولة في صياغة طريقة تفكير المواطنين فأمر بهدم كل ما تشمّ منه رائحة الوثنية واضطهد الفرق الدينية غير الارثوذوكسية ودعا إلى عقد مجمع في القسطنطينية سنة 381 لم يكتف فيه بتأكيد ما أقر في مجمع نيقية من تساوي الأب والأبن بل اضاف إليهما تساوي الروح القدس ورفع من شأن أسقف القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الأولى. إن صورة تيودوس تبدو عند كثير من المهتمين بهذه الفترة قريبة من صورة الدياني المتعصب المدفوع بدافع التقوى وحده إلى اضطهاد المذاهب غير السنية.فهذا غوستاف لوبون يشدد على تعصبه الديني:

> عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي في القسطنطينية امر الأمبراطور تيودوس Théodose سنة 389 بهدم كل المعابد وأنصاب آلهة مصر القديمة وكل ما يمكن أن يذكّر بها.[1]

1- G. Lebon: La civilisation des Arabes, p. 156

ومثل هذا التفسير يخفف من تاثير ضغط العامل السياسي الدافع إلى مثل هذه الاجراءات ويدفعنا إلى التحفظ إزاءه. فقد كان تيودوس وهو يتولّى الحكم يرى ضغط الحزب القوطي الأرياني الذي ينفي ألوهية المسيح يطال البلاط الامبراطوري ذاته حتى ان فالنس (364-378) الذي سبقه في الحكم اعتنق الاريوسية دون أن يقيه ذلك لا من الموت بأيدي فرع منهم هو الفيزيغوط ولا دون اشتداد ضغطهم على الجزء الغربي من الامبراطورية. أما فالنتيان الثاني (375-392) الامبراطور في روما فقد لقي مصرعه على يدي أحد جنرالاته من الافرنج المتسلطين على البلاط وكان على تيودوس نفسه أن يتدخل سنة 394 لإعادة الأمور إلى نصابها.

كما ان الشمال الافريقي التابع لغرب الامبراطورية الرومانية المتهاوي كان يعصف به في هذه الأثناء وفي نوع من الوطنية الدينية المذهب البيليجياني الذي لم يتمكن جدل القديس أوغسطين ضدّه من الحد من انتشاره. والبيلاجيانية باعتقادها أن الجهد الفردي ابتغاء الخلاص يتنزّل إذا ما ما قورن بـ"النعمى" المنزلة الأولى لا يقود في نهاية الأمر إلا إلى التقليل من شأن الوسائط بين الله والانسان ومنها الكنيسة. والتقليل من شأن الوسائط لا يعني سياسيا إلا نوعا من الاستقلالية.

بهذا الفهم وحده للعلاقة بين الدين والسياسة يمكن أن نفسر شدّة اجراءات تيودوس في معاملة المذاهب النابذة فهو في سلوكه لا يعدو أن يكون معبّرا عن السياسة التي سنّها قسطنطين وأفضت إلى هذه التبعية الدينية للدولة المميزة لما سيسمى فيما بعد بالارثوذوكسية والتي ما زالت الكنيسة الروسية خليفة بيزنطة على ما تدّعي مثالا عليها في القرن العشرين:

وفعلا أعلن تيودوسيوس أن لا تسامح في الدين: إن للدولة دينا إجباريا يحدّد مقوماته الامبراطور ويفرضها على رعاياه. وبذلك أصبحت الارثوذوكسية والهرطقة مادة سياسية بقدر ما هي دينية أو بالأحرى اختلطت وجهتا النظر بعضهما البعض. وهكذا تأسس فيما يتصل بالعلاقات بين الكنيسة والدولة المذهب

الذي سيكون من ذلك الوقت فصاعدا مذهب الامبراطورية البيزنطية والـذي يطلـق عليه أحيانا وإن بتعبير غير ملائم إسم القيصرية البابوية. [2]

ذلك هـو ذوبـان الديـن في الدولـة. وعندمـا اعتـبر "لومـيرل" أن اطـلاق عبـارة القيصرية-البابوية على الارثوذوكسية في غير محلـه فمـا ذلـك إلا لأن "أسـقف" روما لن يقبل بتـوق الدولـة البيزنطيـة إلى الهيمنـة علـى الكنيسـة وسـيقود هـذا الرفض إلى نشأة "البابوية". إن كل مجهودات تيودوس للحد مـن انهيـار الدولـة شرقا وغربا ومغربا وتوحيد المواطنين دينيا ستذهـب سـدى إذ بلـغ الـداء عظـام الامبراطورية خاصة في الجزء الغربي والمغربي منها.

فعلى عهد خليفته في روما هونوريوس (395-423) اضطـر الرومـان إلى الجـلاء عن انكلترة (407) واشتدّ ضغـط الافرنـج الموريفيـين علـى بـلاد الغـال ونهـب ألاريك ملك الاستروغوط روما سنة 410 وسقطت اسبانيا في أيدي الفـيزيغوط (410) واكتسـح الونـدال شمـال افريقيـا وأسـس جـنزيريك Genseric أول ملوكهم (428-477) دولة اريوسية تضطهد المسـيحية السنية دامـت قرنـا مـن الزمان ولم تستطع حملات القديس أوغسـطين الملتهبة علـى الهرطقـات أن تمنـع هذه النظريات الدينية المعادية بصفة عامة لفهم تأليهي للمسـيح مـن التغلغـل في مناطق قبائل لواتة والفراشـيش وقبـائل الأوراس النوميديـة البربريـة البعيـدة عـن مراكز المدن المتكثلكة كقرطاج وبونه وطنجة.

أمـا علـى عهـد خليفـة تيـودوس في بيزنطـة أركـاديوس (395-408) وتيودوس الثاني (408-450) فقد حدث في الشام ومصر من الانقسام الديني ما يعدّ الخطر الاريوسـي الـذي اجتهـد تيـودوس في محاربتـه أمـرا ليـس بـالخطورة المزعومةإذ كان معتنقو الاريوسية اساسا من برابرة الجرمان أما الانقسام الجديـد فقد مسّ ما أصبح يمثل ما تبقى في واقع الأمر من الدولة الرومانيـة اي مـا سمـي فيما بعد بالمشرق العربي وهو أثرى أجزاء الامبراطورية اقتصادا وثقافة.

فقد وجدت مدرستا الاسكندرية وأنطاكية في هذه الفـترة الحرجـة مـن حياة الامبراطورية التي يصعب فيهـا الفصـل بـين مـا هـو هرطقـة دينيـة ونزعـة

2- P. Lemerle: Histoire de Bysance, p 38.

انفصالية، فرصة جديدة للصراع أثناء حكم تيودوس الثاني. هذ الصراع لم يتمثل هذه المرة في الموقف من طبيعة المسيح (هل هي من طبيعة الأب أم لا) وإنما في كيفية اتحاد الطبيعتين الالهية والانسانية في شخص المسيح وذلك بمناسبة إعلان احد بطارقة القسطنطينية المتأثرين بالمنهج الانطاكي المشبع أرسطوطالية وهو نسطوريوس (428–431) عن اعتقاده أن طبيعتي المسيح الالهية والبشرية مستقلتان عن بعضهما البعض وأن الجانب الانساني فيه غالب على ما عداه إذ ليس المسيح في نهاية الأمر إلا بشرا تحول إلها. هذا الرأي اعتبره المونوفيزيون في الاسكندرية صياغة جديدة للأريوسية التي قاوموها بضراوة. وقد دعم موقفهم من نسطوريوس إدانة أسقف روما سيليستين الأول (422–432) النظرية النسطورية سنة 428 فطالب أسقف الاسكندرية كيريلوس (ت 444 Cyrille) أسقف الاسكندرية نسطوريوس إما بالتراجع فيما ذهب إليه وإما بالاستقالة وبذلك فتح الطريق لخصومة دينية سياسية لم يجد الامبراطور تيودوس الثاني سبيلا إلى تطويقها في غير الدعوة إلى عقد مجمع مسكوني ثالث هو مجمع أفسس (441) للبت في المسألة.

إن ما يبدو قضية دينية فحسب ليس في الحقيقة كذلك. فالقسطنطينية هي عاصمة الامبراطورية ومركز الثقل الفعلي أما روما فالانهيار السياسي فيها قد أصبح واضحا منذ بداية القرن وستسقط روما ذاتها سنة 476 تحت ضربات البرابرة فلا بدّ عندئذ من احتهاد الكنيسة فيها لملء الفراغ وأولى الخطى نحو هذا الدور الجديد هي تحقيق هيمنتها على بقية الكنائس في بيزنطة وانطاكية والاسكندرية.

أما الاسكندرية فلقد نزّلها مجمع القسطنطينية سنة 381 المنزلة الأولى في المرتبية الكنسية فلا مجال ومنزلتها الرسمية على ما هي عليه أن لا يكون لها رأي حاسم في المسألة خاصة وان الداعية إلى المذهب الجديد هو اسقف القسطنطينية. إن هذا الفهم للقضية هو الذي يفسر انعقاد ما يشبه التحالف بين هذه الكنيسة وتلك في فترة ما وانحلاله في أخرى. ففهم المسألة دينيا فحسب لا يفي بالحاجة إلى الوضوح الكافي.

وعندما أدان مجمع افسس نسطوريوس وأقاله من أسقفية القسطنطينية لم يزد القضية إلا تعقيدا. فانتصار المونوفيزية (مصر) على الاريوسية (بيزنطة) ليس انتصارا للارثوذوكسية الرسمية في نهاية الأمر ولا هو انتصار لروما إذ أن المونوفزية (حتى إن أخذنا بالجانب الديني وحده) وهي "تلحّ على ضرورة الغض من أهمية طبيعة المسيح الانسانية لم تعد بعيدة عن القول أن ليس في المسيح غير طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية. هذه هي المونوفيزية التي هي في بعض معانيها نقيض الهرطقتين النسطورية والاريوسية"[3]. ولذلك عندما أخذ بعض رهبان القسطنطينية بالمونوفيزية تحول النزاع إلى نزاع بين روما والاسكندرية: روما تندّد على لسان البابا ليون الكبير (440–461) بالمذهب المونوفيزي واسقف الاسكندرية الجديد ديوسكوروس يشجّع عليه. ولم يجد الامبراطور البيزنطي كعادته، وسيلة للحسم في القضية غير الدعوة إلى عقد مجمع جديد في أفسس سنة 449. وكما حدث في المجمع السابق تمكّن المونوفيزيون من ضمان النصر لمذهبهم فاتهمهم خصومهم باستعمال وسائل أبعد ما تكون عن السلوك الاخلاقي القويم وسمّوا ما وقع في هذا المجمع "ملصة أفسس" (أي لصوصية أفسس) رغم أن الامبراطور نفسه، حرصا منه على الاحتفاظ بولاء مواطنيه في المشرق زكّى ما أسفر عنه هذا المجمع. ومات تيودوس الثاني سنة 450 والنزاع الديني على أشده، فبادر خليفته الامبراطور مارقيان (450–457) بالدعوة إلى انعقاد مجمع مسكوني رابع في خلقدونية (451) حضره سفراء عن البابا وانتهى بنقض قرارات "ملصة أفسس" وبإقالة ديوسكوروس الاسكندري وتحرير نص من وحي البابا في روما يعرّف المسيح بأنه "واحد في طبيعتين" ويدين المونوفيزية. وإذن فإنه ما أن انتصف القرن الخامس حتى تحددت معا لم القطيعة النهائية بين مختلف المذاهب المسيحية:

-استعانت المونوفيزية الاسكندرية (الشرقية) في مرحلة أولى بروما (الغربية) لإدانة النسطورية (الشرقية).

-فرضت روما في مجمع خلقدونية وجهة نظرها فأدانت المونوفيزية.

3- المرجع السابق ص، 38.

وهكذا كانت الغلبة في النهاية لروما رغم انهيارها السياسي ولعاصمة الامبراطورية البيزنطية القسطنطينية وانهزمت "مدارس المحيط (الاسكندرية، انطاكية) فزاد ذلك من تفتتها إذ شهدت هذه الفترة بالذات داخل منطقة التأثير الانطاكي ولادة مذهب ديني حول مار مارون (أي القديس مارون) في مدينة صور بدا محاربا للنسطورية والمونوفيزية معا وانتهى بتبني وجه من الكاثوليكية لن يكف وقد طعمه "بالفينيقية" عن نصرته طيلة خمسة عشر قرنا.

ولعل هذا التفتت الذي شمل المنطقة التي ستسمى العربية فيما بعد كان واحدا من أسباب سرعة التمدد العربي الاسلامي في القرن السابع إذ رحّبت أغلب المذاهب غير السنية بالدولة الجديدة نكالة في مضطهديها الاورثوذوكس وأملا منها في أن يكون الحكم العربي الاسلامي، ولقد كان كذلك إلى حدّ كبير طيلة حياته التي امتدت ثلاثة قرون، أكثر تسامحا دينيا.

إن القول بهذا العامل الذي ساعد العرب المسلمين في مشروعهم السياسي العسكري الديني يعني في نهاية الأمر أن ما رأى فيه مرقيانوس انتصارا إنما كان على الأمد البعيد انتصارا للكاثوليكية وهزيمة حقيقية للارثوذوكسية. وفعلا فإن بيزنطة بعد أن خسرت مواقعها في البلقان وانجلترا وفرنسا وايطاليا وشمال أفريقيا أصبحت مهددة داخليا في ما تبقى لها من نفوذ في الشام ومصر إذ رأت مدرسة الاسكندرية فيما حدث في مجمع خلقدونية أكثر من مجرد صراع ديني ظرفي إذ يبدو أن كنيسة مصر تخلّت في هذه الفترة عن اللغة اليونانية لتستعمل القبطية.[4]

وفقد مصر يعني في الحقيقة فقد الشام إذ أن مصر منذ عهد الفراعنة[5] (وقبل ذلك على ما نعتقد رغم فقدان المصادر) وحتى آخر تجربة سياسية سنة

4- المرجع السابق، ص 41 ونلاحظ هنا العلاقة بين قبط و (E/gypte).

5- الفراعنة: يطلق في مصر القديمة على قصر الملك عبارة "الدار الكبرى" التي تسمى بالمصرية parâa والتي تحولت بتأثير الأغريقية إلى "فرعون" الذي أصبح اسما فضفاضا يدخل ضمنه كل ملك مصري سواء كان مينس من السلالة الأولى (2900 ق.م) أو كان مثلا رمسيس الثاني الشهير (1235-1298 ق.م) معاصر الزعيم اليهودي موسى. أنظر الصفحة 175 من كتاب:

1958 كانت شامية الاتجاه لا يتجاوز بعدها الافريقي السودان والحبشة والصومال فهي افريقية جغرافيا شرقية الانتماء وحدودها الثقافية الافريقية تشق ليبيا و لا تتجاوزها ولذلك كانت ليبيا ممزقة بين المشرق والمغرب. إن هذا هو التفسير الذي نراه أكثر وجاهة لهيمنة المونوفيزية حتى في بوادي الشام رغم بعد تراث القوم عن كل تجريد وجنائزية.

لقد كان مارقيان وهو ينصر روما على ولاياته الشرقية مدفوعا بأمل واه في امكانية الحفاظ على الجزء الغربي من الامبراطورية الرومانية وعلى شمال افريقيا الضائع وقد اثبتت الأيام، بعد أن فرّط في الشام ومصر، ما في سياسته من بعد عن الواقع.

كتب ديهل عن تمكّن الوندال من قرطاج وشمال افريقية:

جهزت روما والقسطنطينية أثناء القرن الخامس حملات قوية كثيرة ضد المملكة الوندالية الخطيرة التي كانت أساطيلها تهدد بلا هوادة كل شواطئ البحر المتوسط. فعلى التوالي حاول ماجوريان Majorien (457-461) أحد أكثر من جلس من أواخر الأمراء على عرش روما حزما وكذلك ليون الأول أمبراطور الشرق (457-474) بعده ببضع سنوات أن يقوض حكم جنزيريك (428-477). غير أن محاولتيهما لم تكللا بالنجاح. ففي سنة 460 لم يتح للأسلحة المجمعة في موانيء اسبانيا حتى الابحار. أما حملة 468 فقد كانت بدايتها تبشّر بالخير ولكنها انتهت في مياه قرطاج بكارثة مشهودة ذهبت لسنوات طويلة بالاسطول البيزنطي وبمالية امبراطور الشرق واضطر زينون (474-491) خليفة ليون الأول تحت وقع هذا الفشل أن يعقد سنة 476 في اللحظة التي كان فيها الغرب يسقط نتيجة ضربات اودواكر Odoacre صلحا أبديا مع جنزيريك.[6]

غير أن وهم مرقيان لم يكن سياسيا فحسب بل كان دينيا، فروما نفسها كانت تجهد منذ بداية القرن في مقاومة هيمنة بيزنطة الدينية عليها وما اجتهاد اوغسطين فيما يتعلق بهذه المسألة إلا مساهمة في كسر الطوق السياسي

Etienne Drioton et Jacques Vandier: l'Egypte des origines à la conquête d'Alexandre, Paris, 7ème éd. 1989.

كما تجدر الاشارة إلى أن الأمثلة عن الخلط بين الأعلام والألقاب كثيرة في كتب التاريخ القديمة ومن ذلك ذكر قيصر على أنه علم وذكر بحيرا والحال أن بحيرا تعني الراهب بالسريانية.

Charles Diehl: L'Afrique Byzantiqne, vol. 1, s.d., p. 4 -6

البيزنطي عليها. "فمملكة السماء" La Cité de Dieu (413-417) كانت تسعى إلى عرض تاريخ الانسانية منذ نشأتها إلى القرن الخامس.وهي لا تخضع في سعيها هذا ما يمدّها به التاريخ الوثني (الاغريقي واللاتيني) والعهد القديم والجديد على حدّ سواء من معطيات إلى معايير عقلية. إن غاية هذا السعي هي اثبات وجود رهان هو وجود الله، وهو أكثر أهمية بكثير من رهان البشر المحكوم بالتقلبات التي تميز مملكة الناس. هذا الرهان الالهي يندرج ضمن مسار جماعة المؤمنين الروحي وضمن مسار الكنيسة: إن خلق الكون والخطيئة الأصلية والحلف الآلهي اليهودي والقربان وتأسيس الكنيسة، كل هذه الأحداث ليست إلا مراحل ضمن هذا المسار الروحي الذي إذا كان بامكان الانسان أن يتبين فيه أثر العناية الالهية فبإمكانه كذلك أن يسهم فيه بما يقدم من عمل ملائم للعقيدة........الغبطة . وإذن كان الفكر الاغريقي قد اتخذ له من الدائرية مثالا للزمنية فإن أوغسطين قدم فهما للزمن على أنه تاريخ خطّي ذو بداية (ابتداء العالم) ونهاية (البعث) وأنه هو تاريخ الانسانية ذاتها. هذا التاريخ اتخذ شكل تاريخ انسان فرد يستند إلى أحداث فريدة ويتضمن معنى أي له وجهة وأن له دلالة في الان نفسه. وبهذا الفهم للزمنية يكون أوغسطين قد قدم النموذج الذي ستنسج على منواله لاحقا كل فلسفات التاريخ بما فيها تلك التي تعد أكثر الفلسفات قولا بالمادية العلمية[7].

إننا انضباطا للموضوع لن نتناول ما يتصف به التطور الأغسطيني من إمكانات حقيقية لتغيير نظرة الانسان إلى التاريخ ومن ثم إلى الحياة ولكننا على العكس من ذلك نؤكد على المنزلة التي نزّل فيها أوغسطين الكنيسة بصفة خاصة والسماء بصفة عامة فلا سلطة زمنية بامكانها أن تطال تعالي الكنيسة وتعالي السماء وهذا يعني أن على الامبراطور أن يشتغل بما له من صلاحيات في الجيش والاقتصاد... وأن يترك "ما لله" لنواب المسيح ممثلين في أساقفة روما. وفي ظل الفراغ السياسي في البلاد الغربية فإن مثل هذه الدعوة لا يمكن إلا أن تقود إلى تضخم دور الكنيسة الكاثوليكية الروحي في فترة أولى في كل البلاد

7- François Châtelet et autres: Histoire des idées politiques, 1982, p. 18.

الغربية الخاضعة للبرابرة الجرمان الذين يشبهون على عكس المشارقة "الصفحة البيضاء" دينيا التي يمكن أن "تكتب فيها الكنيسة الكاثوليكية ما تشاء" وفي فترة لاحقة من هيمنة الكنيسة على السلطة الزمنية ذاتها. وبذلك لن يكون تاريخ البلدان الغربية اللاحق غير سعي السلطة السياسية لاستعادة ما كان لها من شأن على عهد الرومان الوثنيين.

ان زينون (Zénon) الذي سيتسلم الحكم وقد وصلت الامبرطورية الى هذا الوضع الخطير سوف يتفطّن الى خطورة التفريط في بلاد الشام ومصر وسيعتنق المونوفيزيّة سعيا منه إلى التقريب بين الدولة والمجتمع وسينجح الى حدّ ما في سعيه هذا. نقول إلى حدّ ما لأنّ حالة الانهيار هذه كانت كأنها ملازمة لطبيعة الدولة في هذا العصر كما كانت عامة تتجاوز الرومان الى دول أخرى معاصرة ومنها الدولة الساسانية الخصم واذا كان هناك فارق يستحق الذكر بين الأخطار التي تهدد الدولتين فهو يتمثّل في نوع الجنس الذي كان يستعدّ للانقضاض على الدولة الساسانيّة اذ هو في الحالة الساسانية تركي لموقع ايران الاسيوي القريب من الاحتياطي البشري التركي الضخم الذي كان قبل هذه الفترة وأثناءها وبعدها (وسيجرب القريشيون ذلك طيلة حكمهم الذي دام ثلاثة قرون) يمثل الخطر الكامن سواء على الصين والهند أو على كل الدول التي تتأسّس في الشرقين الأوسط والأدنى.

ولقد شهدت الامبراطورية الساسانية بعد حكم الاباطرة الثلاثة أردشير الثاني وسابور الثالث وبهرام الرابع المتسم بالضعف والاضطراب نهاية القرن الرابع عودة الى ما يشبه التجدّد على عهد يزدجرد الأول (399–420) الذي بلغت مواقف المؤرخين منه حدّ التناقض الصارخ : ففي حين يمتدح المسيحيون قراره بمنح رعاياه سند 420 حرية المعتقد يميل المؤرّخون المسلمون بمجاراة للساسانيين المتأثرين بقتلته من رجال الدين المجوس الى رسم صورة قاتمة له. كتب عنه ابن خلدون :

كان (يزدجرد الاثيم) فظّا غليظا كثير المكر والخديعة، يفرغ في ذلك عقله وقوّة معرفته، وكان معجبا برأيه، سيء الخلق، كثير الحدّة، يستعظم الزلّة الصغيرة ويردّ

الشفاعة من أهل بطانته، متّهما للناس، قليل المكافأة، وبالجملة فهو سيء الاحوال مذموما (...) واشتدّ على الاشراف بالاهانة، وعلى من دونهم بالقتل. وبينما هو جالس في مجلسه يوما اذا بفرس عابر لم يطق أحد امساكه قد وقف ببابه فقام اليه ليتولى امساكه بنفسه فرمحه فمات لوقته لاحدى وعشرين سنة من ملكه"[8].

إن بامكان المرء أن يستخرج مما كتب ابن خلدون، وبغض النظر عن الصبغة الخرافية التي تبدو في البعض منه، إشارات الى العداوة التي كانت طبقة الاقطاعيين ورجال الدين تكنّها ليزدجرد بعد أن "أشتد أمره على الأشراف بالاهانة، ومن دونهم بالقتل" فهذه الطبقة استغلّت فترة الضعف الفاصلة بين نهاية حكم سابور الثاني وبداية حكم يزدجرد الأول (379–399) لتقضم صلاحيات الدولة المركزية، سيبدو عداؤها أولا في قتل يزدجرد وثانيا في سعيها إلى الحيلولة دون تولي ابنه بهرام غور الحكم (420–438).

فالرأي الأكثر وجاهة هو الذي يجب أن يعكس الصورة فيرى في فترة حكم يزدجر وابنه بهرام (أربعين سنة) فترة استعادت فيها الدولة الساسانية البعض من قوتها السابقة ومن القرائن الدالة على ذلك الاجماع الحاصل حول استعادة الحيرة المحمية الساسانية دورها القديم على عهد النعمان الاكبر (ت 418) وابنه المنذر الأول (418–464) فاذا التحالف اللخمي - الساساني يتجاوز مجرّد الولاء السياسي الى ما يشبه العلاقة الحميمة : "يظهر ذلك في الالقاب التي منحها يزدجرد النعمان الأكبر ("مكثر بهجة يزدجرد"، "النعمان الأكبر")" على ما يقول كريستنسن وفي اختيار يزدجرد النعمان مربّيا لابنه بهرام الخامس اذ نشأ هذا الملك الساساني "ببلاد الحيرة مع العرب، أسلمه أبوه اليهم فربّي بينهم وتكلّم بلغتهم"[9]. وعندما قتل الاشراف الساسانيون يزدجرد واجتهدوا في تنصيب ملك على ايران من غير أبناء خصمهم القتيل قاد المنذر قوة مكونة من الايرانيين واللّخميين هدّدت المدائن وفرضت على الأشراف الساسانيين بهرام الخامس ملكا.

8- ابن خلدون: كتاب العبر، ج 3 ص 353.

9- المرجع السابق، ص 353.

ولقد سار بهرام غور سيرة أبيه في التسامح الديني إزاء الرعايا على كره من رجال الدين المجوس، ومنح اللجوء السياسي إلى كل الديانيين الخارجين عن أرثوذوكسية بيزنطة وأشهرهم نسطوريوس الذي التجأ بعد أن أقاله مجمع أفسس سند 431 من منصبه الى ايران وأسّس فيها الكنيسة النسطورية.
على أنّه كان على بهرام الخامس كما كان شأن أسلافه أن يتصدّى للضغط العسكري الخارجي ممثلا في البيزنطيين وتابعيهم من الأرمن المسيحيين وفي المتبربرين من الهيطل على حدوده الشرقية وكذلك في البدو من العرب الذين تقوى شوكتهم بضعف الحيرة أي بضعف الدولة الساسانية ولقد حصل بهرام الخامس في حروبه على ما طلب من عون لخمي عربي ظهر خصوصا أثناء غزو المنذر أمير الحيرة الرّوم سنة 421 بجيش مختلط لخمي ايراني.
وعندما مات بهرام الخامس وخلفه في الحكم يزدجرد الثاني (438-457) كانت المنطقة كلها تشهد مخاضا ينبيء بتحولات كبيرة فإضافة الى الصراع التقليدي بين الساسانيين والترك والروم كان جنوب الجزيرة العربية يعيش فترة هلع وهجرة جارفة نتيجة انهيار جزء من سدّ مأرب:

> في نقش يرجع تاريخه الى ما بين عامي (449-450) ما يفيد أن سدّ مأرب قد أصيب مرتين بتلف شديد بسبب مياه الفيضان في عصر الملك الحميري (شرحبيل يعفر) ابن أبي كرب يسعد الذي كان يحكم البلاد في الفترة الواقعة بين 425-455.[10]

اما على المستوى غير العكسري والاقتصادي فقد مدّ تسامح بهرام الخامس التيارات الدينيّة المتصارعة في ايران بنفس جديد فازداد الجدل الديني انتشارا ولم يعد مقصورا على الفرق المسيحية بل تعداها الى جدل مسيحي - مزدي. يورد كريستنسن في هذا السياق جدلا دينيّا بين أتباع زرادشت والمسيحيين فيؤكّد الاولون "ان النصارى على خطا عندما ينسبون الخير والشر الى ارادة واحدة وعندما يؤكدون أن الله غيور وأنّه خلق الموت وأدان الناس لا لسبب إلا لأن تينة واحدة سقطت من شجرة. إن غيرة كهذه لا توجد بين البشر فكيف يمكن

10- النجار - علاقة .... ص 13-14.

أن تكون بين ا الله والانسـان. ومـن أخطـائهم (أي المسيحيين) كذلـك أن ا الله الذي خلق السماء والأرض حلّ بالارض وولد من عذراء تسمى مريـم بعـد أن كانت زوج رجل يسمى يوسف فالمسيح انما هو في الحقيقة ابن لـ (فانتور) ولـد اثر علاقة زنا. ثمّ ان رؤساء النصارى الروحيين يقولون أن أكـل اللحـم لا يعـدّ اثما وهم مع ذلك يعرضون عن أكله ويقولون أن الزواج مبـاح وهـم مـع ذلـك يعرضـون عـن النظـر إلى النسـاء ويقولـون ان مـن يجمـع الكنـوز يرتكـب اثمـا ويشيدون غاية الاشادة بالفقر. هم يتغنون بـالمحن ويغضـون مـن الازدهـار. هـم يزدرون الثروة ويفضلون الاشـياء المبتذلـة علـى الأشـياء الثمينـة. هـم يمتدحـون المـوت ويحتقـرون الحيـاة. هـم يستنكرون ولادة الاطفـال ويتحسّـرون علـى العقـم"[11].

أمّا المسيحيون فيردون على الزرادشتيين :

"أننا لا نعبد مثلما هو شأنكم العنـاصر والشـمس والقمـر والريـاح والنـار، ولا نقدّم قرابين لكل هذه الآلهة التي تذكرون في الأرض والسماء، فنحن، وهـذا مـا تعلمنـا، نعبـد بثبـات الاهـا واحـدا حقيقيـا خلـق السـماوات والارض ومـا تحتويان"[12].

ان التناقض واضح بين الديانتين: ديانة تضرب عروقها في الارض لأنها ظهـرت في حضارة حاكمين هيمنوا على العالم القديم زمنا طويلا وديانة تدعو إلى قطـع الصلة بالارض لانها ظهرت عند مضطهدين أصبـح الانكفـاء النفسـي والعقلـي ديدنهم.

ان المآخذ على المسيحية قريبة من المآخذ على النبي ماني (وكذلك علـى النبي الذي سيظهر بعد بعض العقود : مزدك) الذي قتـل لأن في دعوتـه تهديـدا للمجتمع الساساني القـائم الـذي تحتفـل زرادشـتيته بالجسـد والارض والـولادة والخصب وتعادي أيما معاداة كل مظاهر الزهـد والتصـوف والتشـاؤم. ولذلـك يمكن تكرار القول ان دعوة الشاعر :"لدوا للموت وابنوا للخراب" ليسـت مـن

11- Christensen - L'Iran... p. 282.

12- المرجع السابق ص 218.

الزرادشتية (المجوسية) في شيء اذ عناصرها مانوية مسيحية كما يمكن القول ان من أسباب ترحيب الساسانيين بالنسطورية تغليب هذا المذهب طبيعة المسيح البشرية على ما عداها ورفضه القول أن العذراء أم ا لله إذ هي أم عيسى فحسب بل يمكن القول ان "طبيعية" الزرداشتية هي التي تفسّر احتفاء كثير من المفكرين الغربيين بها زمن هيمنة الوضعيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاصة على جزء غير قليل من البلاد الاوروبية الغربية. لقد رأى يزدجرد الثاني في اتجاه الجدل هذه الوجهة المحاربة للدين الرسمي الساساني خطرا اضافيا على الدولة فعمد الى اتخاذ اجراءات ضدّ المسيحيين وحتى اليهود المقيمين في بلده والذين سيشهد هذا القرن والقرن الذي يليه اكتمال نشاطهم الموسوعي لبلورة أساس تراثهم الثقافي ممثّلا في تلمود بابل ذي العشرين جزءا والذي يعتبر مع تلمود القدس الذي يصغره حجما دائرة معارف الثقافة العبرية التقليدية[13] ان سلوك يزدجرد الثاني الديني يبدو في نظرنا صادرا عن نظرة سياسية لا عن ردّة فعل نفسية او دينيّة كما يذهب الى ذلك بعض من أخذوا بفكرة أن العامل النفسي هو الحكم في سياسة الشرقيين (وأين تقف حدود الشرق؟) وأن العامل العقلي (والى أي حدّ يمكن فصل العقلي عن النفسي ؟) هو الحكم في سياسة المنتمين الى الحضارة اليونانية الرومانية.

إن هذه الفترة التي رأينا بعض ملامح الصراع الديني فيها كانت تحمل في طياتها أكبر خطر هدّد الدولة الساسانية في هذا القرن تماما كما هدّدت المانوية الدولة في القرن الثالث وهو الخطر المزدكي الذي سيتجلّى في عهد خلفائه وسيمتدّ حتى الثلث الاول من القرن السادس. واذا كان يزدجرد قد حدّ من النزيف أثناء فترة حكمه فان خلفاءه هرمز الثالث (457–459) وفيروز الأول (459–484) وولاش (484–488) سيغرقون في أزمة انتهت بكارثة حقيقية على البلاد فأصبحت تابعة للترك مستسلمة للبيزنطيين على ضعفهم فاقدة لكل سيطرة على العرب البدو في بلاد الرافدين والخليج بل ستسقط محميتهم

13– Chouraqui (André) - Histoire du Judaisme - Paris, Puf., 1968 p. 41.

الحيرة في أيدي الكنديين الحضرميين، هؤلاء العرب الجنوبيين الذين لا يمثّلون غير جزء صغير من الجماعات البشرية الهائلة التي دفعها انهيار الوضع الاقتصادي جنوب الجزيرة الذي اختزلته الروايات القديمة في تصدّع بعض الاجزاء من سدّ مأرب والضغط الحبشي معا الى البحث عن مجال حيوي في مناطق الخصب الشمالية تماما كما يدفع اليوم ظهور النفط في الخليج والسعودية الى هجرة اليمنيين نحو هذه البلاد.

ان وضعا كهذا يتطلّب رجال حكم على مستوى عال من الكفاءة للحدّ على الاقل من انهيار الدولة ولم يكن خلفاء يزدجرد كذلك : فما أن مات الشاهنشاه حتى اندلعت الحرب بين ابنيه هرمز الثالث وفيروز وانقسم المجتمع الايراني بين مؤيد لهذا ومؤيد لذاك ومالت الكنيسة المجوسية ذاتها الى فيروز في حين اضطلعت أمهما بالحكم في المدائن طيلة هذه الحرب الأهلية التي انتهت بأسر فيروز أخاه ثم قتله والانفراد بالحكم. ولقد تعاقبت على الامبراطورية الساسانية أثناء فترة حكم فيروز الخطوب :

- حدود شمالية وشرقية مهدّدة بالغزو التركي.
- جفاف طويل نتجت عنه مجاعات مسّت مناطق شاسعة في الامبراطورية.
- تكاثر حالات التنصر في الطبقات العليا من المجتمع.

ان الصورة التي كانت عليها القوتان العظميان في الثلث الاخير من القرن الخامس هي صورة انهيار شامل ولم تكن قد توفّرت هذه المرة أيضا الظروف الملائمة لظهور دولة جديدة تحلّ محلّ دول العالم القديم المنهار. فكان لابدّ من انتظار قرن كامل ونصف القرن حتى يحدث ذلك مع الدولة العربية الاسلامية.

الفصل الخامس

الهرطقات الرسمية

حاول الأمبراطور زينون (474-491) وهو يتسلم الحكم أن يسلك سياسة واقعية توثّق العلاقة بين الدولة البيزنطية ومقاطعاتها في الشرق الأدنى فاعتنق المونوفيزية مثيرا بين بيزنطة وروما انشقاقا دام حتى عهد جوستنيان وامتحن النساطرة فهاجروا إلى البلاد الساسانية يحملون معهم كتب أرسطو وجالينوس Gallien ودسكوريدس ويترجمونها إلى السريانية والكلدانية ناشرين بذلك الثقافة الاغريقية في بلاد الرافدين الساسانية. أما على المستوى السياسي، فقد عقد صلحا "أبديا" مع الوندال في قرطاج رغم ما كان يعرف من شدة اضطهادهم للكنيسة الكاثوليكية على عهد هونيريك Huneric (477-484) خاصة وما بدأ يظهر عليهم من ضعف استغلته قبائل البربر من لواتة في ليبيا والفراشيش Frexès في الوسط التونسي وقبائل جبال الأوراس النوميدية، إذ لم تكن بيزنطة في وضع يمكنها في هذه الفترة من كبح التمرد البربري الخطير. إن هذه القبائل وغيرها من القبائل البربرية لم تكن، شأنها في ذلك شأن القبائل القحطانية والعدنانية في الجزيرة العربية لترضخ للسلطة المركزية إلا عندما تكون هذه السلطة على قدر كاف من القوة وهي تستغل فرصة كل ضعف يبدو على الدولة للانتقاض عليها. كتب شار دييل عن هذه القبائل:

> فإلى جانب سكان المقاطعات الذين يظهرون عداوتهم للوندال أو يكتمونها، لم يكن موقف القبائل البربرية أقل إزعاجا. ذلك أنه إذا كان جنزريك Genséric (428-477) الصلب قد فرض سلطته عليها وأشركها في غزواته الحربية فإنها سرعان ما تخلصت من سيطرة خلفائه. ومنذ حكم هونيريك Hunéric (477-484) أعلن جبليو الأوراس استقلالهم من دون أن يتمكن الوندال من الفتّ في ساعدهم. وقد سلك بعد ذلك مسلكهم أهالي الحضنة والضيبان وكبار رؤساء القبائل في مختلف أجزاء موريطانيا. فلم يعد يربطهم بالوندال في أحسن الحالات غير

رابطة التبعية. ثم إنهم خطوا خطوة أخرى يشجعهم على ذلك عجز الونـدال عـن عقابهم فإذا القبائل الموريطانية تنزل إلى الأراضي المنبسطة متخطية الحصون الرومانية المهجورة التي كانت تمثل حاجزا لها وتعيش في هضـاب نوميديـا العليـا ولا يتمكـن هونيريك من الحيلولة دون غزواتها الضارة.
أما قبائل طرابلس في عهد ترانساموند Transamond (496-522) وقبائل تونس الوسطى في عهد هيلديريك Hilderic (523-530) فقد ألحقت بـالقوات الملكيـة بعد أن تمردت هي بدورها هزيمتين متتاليتين.
وإذن فإنـه ليس بإمكـان جيليمـر Gélimer (530-534) أن يعـول في دفـع البيزنطيين على هذه هذه القبائل. لقد كان الموريطانيون يرقبون الأحـداث في حيـاد لا يبعث على الاطمئنان، متهيئـين للانضمـام مـن دون تـردد (أو وخـز ضمـير) إلى الفريق الغالب[1]

إن كـلام ديبـل يتعلـق بالـبربر ولكـن يكفـي أن نضـع مكـان لواتـة والفراشيش قبائل كندة الحضرمية أو حمير اليمنيـة أو قريـش الحجازيـة لنحصـل على صورة واضحة عما كانت عليه أوضاع المستعمرات البيزنطيـة والساسـانية في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السـادس. فشـعور زينـون بامكانيـة انهيـار الدولة البيزنطية انهيارا تاما هو الـذي يفسّـر عقـد صلـح مـع الونـدال منكـري الوهيّة المسيح والمحتفظين في قرطاج بـ "الحليّ الامبراطورية، رمز السـلطة العليـا، التي استولوا عليها عندما نهب جنزيريك روما"[2]. كما يفسّر اعتناقـه المونوفيزيّـة "مذهب المصريين والشوام" بكل ما يعني ذلك من خـروج عـن قـرارات مجـامع مسكونيّة (عالميّة) أشرف الأباطرة البيزنطيون أنفسهم على انعقادها : فقد كـان الامبراطور يحتاج إلى قدر معقول مـن الاستقرار في الشـرق الادنـى وفي البحـر الابيض المتوسط عامة بعد أن أصبح الاستقرار أثرا بعد عـين. ويكفـي أن نشـير إلى بعض الأحداث المتعلّقة بالعرب في هذه الفترة والفترة التي تليها توضيحـا لمـا نقول. فحرب البسوس المشهورة في كتـب الادب حدثـت سـنة 490 أمـا أكـبر غزوتين عربيتين على مناطق النفوذ البيزنطي في الشام فقد حدثت أولاهمـا سـنة 502. أما الثانية التي بلغت في امتدادها القدس وأجبرت جوستنيان علـى الأمـر بتحصين الاديرة فقد حدثت سنة 529.

1- Charles Diehl, L'Afrique Byzantine, ص 12.
2- المرجع السابق ص 5.

كما أن اختلال الأوضاع جنوب الجزيرة دفع كندة الحضرمية إلى الهجرة نحو الشمال فحلت محلّ ملوك الحيرة في بلاد الرافدين وشمال الجزيرة ودفعت الغسانيين وهم فرع من الأزد إلى الاستقرار على الحدود البيزنطية جنوب الشام سنة 490 تقريبا فسيطروا على القبائل اليمنية التي سبقتهم إلى الاستقرار في المنطقة وعقدوا مع البيزنطيين سنة 502 – 503 اتفاقا كتب عنه ابن خلدون الذي أكثرنا من الاستشهاد به لمضمون الشواهد لا بسبب ما يتصل بالتاريخ للاحداث إذ لا يجب الاعتداد بما ورد عنده في هذه المسألة مما يتصل بالفترة موضوع الدراسة.

تفرّدوا بملك الشام وذلك عند فساد كان بين الروم وفارس فخاف ملك الروم ان يعينوا عليه فارسا. فكتب إليهم واستدناهم (...) وكتبوا بينهم الكتاب على أنه إن دهمهم أمر من العرب أمدّهم بأربعين ألفا من الروم وإن دهمه أمر أمدّته غسان بعشرين ألفا وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه"[3].

ويبدو أن مثل هذه الغزوات هي التي دفعت زينون الى تعضيد حكم الغساسنة جنوب الشام بحكم موال في مكة بعد أن عجزت خزاعة عن السيطرة على الأوضاع فدعم قصيّ أحد رؤوس القريشيين في فرض زعامته على مكة. وكل آراء المؤرّخين تجمع على أن قريشا تحوّلت في هذه الفترة المضطربة بالذات وفي ظل الظروف التي وصفنا من البداوة الى الاستقرار بمكة. كتب ابن خلدون عن هذه الحادثة :

فلمّا كان العام الذي أجمع في قصي الانفراد بولاية البيت وحضر اخوته من عذره (القحطانية المسيحيّة الموالية للبيزنطيين) تعرض لبني سعد أصحاب صوفة في قومهم من قريش وكنانة وقضاعة عند الكعبة. فلمّا وقفوا للاجازة قال : "لا نحن أولى بهذا منكم، فتناجزوا وغلبهم قصي على ماكان بأيديهم وعرفت خزاعة وبنو بكر عندئذ انه سيمنعهم من ولاية البيت كما منع الآخرين فانحازوا عنه وأجمعوا لحربه، وتناجزوا وكثر القتل، ثم صالحوه على أن يحكموا من أشراف العرب، وتنافروا الى يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن عامر بن ليث بن بكر بن عبدمناة ابن كنانة فقضى لقصيّ عليهم فولي قصيّ البيت وقرّ بمكة[4].

---

3 – ابن خلدون ... العبر، م 3 ص 583.

4– ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 692.

لقد كانت الأنشطة المتعلّقة بالبيت موزّعة على أكثر من مستفيد فانفرد قصّي بها جميعا[5]:

فكان (قصّي) أول من أصاب من بني لؤي بن غالب [بن فهر: قريش: العدناني] ملكا أطاع له به قومه، فصار له لواء الحرب وحجابة البيت وتيّمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم اليه في قليل أمورهم وكثيرها، فاتخذوا دار الندوة ازاء الكعبة في مشاوراتهم، وجعل بابها إلى المسجد فكانت مجتمع الملا من قريش في مشاوراتهم ومعاقدهم، ثم تصدّى لاطعام الحجيج وسقايتهم لما راى أنهم ضيوف الله وزوار بيته. وفرض علىقريش خراجا يؤدونه إليه زيادة على ذلك كانوا يردفونه به فحاز شرفهم كله وكانت الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء له"[6].

واذن فاذا كان يمكن الحديث عن ملك عربي جنوبي منذ الالف الاولى على الأقل قبل المسيح وعن الدول المعنية ثم السبئية ثم الحميريّة فانّه لا يمن الحديث عن بذور حكم عربي شمالي الا نهاية القرن الخامس وبداية السادس الميلاديين أي بالضبط عند اندثار حكم العرب الجنوبيين وستحاول كندة الحضرميّة أن تتجاهل هذا المسار التاريخي فيقتل ملوكها جميعا.

لقد استطاع زينون بهذه السياسة أن يحدّ من تفتت الدولة وقد تابع خليفته أنستاس (941 ـ 518) سياسته الدينيّة فتوثّقت العلاقات أكثر مما كانت عليه في السابق بين الدولة البيزنطية ومواطنيها المونوفيزيين. ولا يبدو، في نظرنا، أن ما يذكره كثير من المؤرّخين الغربيين عن امتحان خليفتي أنستاس الامبراطورين الألبانيي الأصل جوستين الأول (518 ـ 527) وجوستينيان (518 ـ 565) الذي شارك قريبه في الحكم أولا ثم خلفه فيه بداية من 527 المونيفيزين كان سياسة قارة وواضحة وعامة ذلك أنّه أذا كانت المراجع تشدّد على ايمان جوستينيان وتقواه وامتحانه الاريوسية بعد انهاء حكم الوندال في شمال افريقيا سنة 534 فما ذلك، سياسيا، الا لان الاريوسية كانت مذهب دولة تمّ القضاء عليها. أما فيما يخصّ امتحان المونوفيزيين، نواة الدولة في الشرق الأدنى،

5- الحجابة : أن تكون مفاتيح البيت عنده فلا يدخله أحد إلا بإذنه./ السقاية : سقاية زمزم./ الرفادة: طعام لأهل المواسم/ الندوة: الاجتماع للمشورة والرأي في "دار الندوة" / اللواء: يعني في الحرب لأنه كان لا يحمله عندهم إلا قوم مخصوصون

6- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 693.

فالقضيّة تحتاج الى تساؤل : فهذا حليفه الغساني المونوفيزي جنوب الشام الحارث بن جبلة (527 – 569) يستقبل بطريرك انطاكية الذي دعاه الى التراجع عن المونوفيزيّة فيرفض دعوته بشكل عميق الدلالة حرص أحد الكتاب المتعصبين على كل ما يعد هرطقة على وصفه :

"روى ميخائيل السوري أن أفرام بطريرك أنطاكية زار الملك الغساني المونوفيزي الحارث بن جبلة سند 538 بغية اقناعه بالأخذ بما تقرّر في مجمع خلقدونية. وقد قدّم الحارث إحراجا للبطريرك طعاما يتكون من لحم الجمل فحسب فرفض أفرام أن يأكل منه. فما كان من الحارث إلا أن قال له :
"كيف تودّ اجباري على القبول بمذهبك إذا كنت تعتقد أن الأكل من "لحمي يدنسك"[7].

بل ان هذه الفترة ستشهد ولادة اليعقوبية (نسبة الى يعقوب البرادعي Baradée، الوجه الشامي من المونوفيزيّة).
ان الذهاب مذهب من يقول بامتحان المونوفيزيّة لا يسمح بفهم العلاقات البيزنطية الحميرية اليمينة مثلا في هذه الفترة ولا كيف زوّد جوستين وجوستينان النجاشي الحبشي المونوفيزي كَلَبْ Kalab بالعدّة التي مكّنته من احتلال اليمن سنة 525.

ان العوامل الاقتصادية والسياسية ضرورية لفهم ما يبدو أنّه سياسة دينيّة فحسب. ومثال اليمن الحميري يعد أفضل الأمثلة على ذلك: فهذا البلد يقع في طريق تجارية حساسة بالنسبة الى الامبراطورية البيزنطية وكان يعيش في النصف الثاني من القرن الخامس أزمة اقتصادية خانقة وتقلصا في هيمنة الحميريين في اليمن على نجران وعدن وحضرموت وضفار التي كان لها ملوكها المتهيئون دائما للتمرّد والاستقلال سبّبا هجرة الكنديين الحضرميين أصهار الحمريين الى الهجرة نحو الشمال الخصب. وسقوط الحكم الحميري نهائيا في الثلث الأول من القرن السادس اذ ما ان مات شرحبيل يعفر ابن أبي كرب أسعد سند 455 حتى تتالت الانتفاضات وانتهى الامر بأن "ملك لخيتعة ولم يكن من أهل بتن

7– ص 82 - ...Havenith. Les Arabes

المملكة. قال ابن اسحق : ولمّا ملك لخيتعة غلب عليهم وقتل خيارهم وعبث برجالات بيوت المملكة منهم. قيل انّه كان ينكح ولدان حمير، ويريد بذلك أن لا يملكوا عليهم، وكانوا لا يملّكون عليهم من نكح (...) ثم وثب عليه ذو نواس زرعه تبّع بن تبّان أسعد أبي كرب (...) وكان صبيّا حين قتل حسان. ثمّ شبّ غلاما جميلا ذا هيئة وفضل ووضاءة ففتك بلخيتعة في خلوة أراده فيها على مثل فعلاته القبيحة، وعلمت به حمير وقبائل اليمن فملّكوه واجتمعوا عليه وجدّد ملك التبابعة وتسمّى يوسف وتعصّب لدين اليهوديّة"[8].

عندما نحذف الجانب الروائي الذي لا نعتقد أنه قريب من الاسطورة،يصبح ما كتب ابن خلدون واضحا:

> فاليمن كان يحكمه الحميريون من صنعاء بينما كانت تهامة وعدن وحضرموت وضفار لا تقبل بهيمنة الحميريين وعندما ضعف هؤلاء افتك أحد المتمردين الحكم منها لفترة ثم استعاد ذو نواس الحميري الأصل اليهودي الدين الحكم واجتهد في مقاومة خصومة ومنهم متنصرون مدعومون بالحبشة وبيزنطة فنكل ببعضهم وهم بنو الحرث في نجران 518 على الصورة التي ذكرها القران في قصة "أصحاب الاخدود" "قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا با لله العزيز الحميد"[9].

فمن الطبيعي أن يلتجئ المسيحيون الى مرجعهم الديني الحبشة وبيزنطة لدفع هيمنة الحميريين المتهودين ومن الطبيعي كذلك أن يستغل جوستين وجوستينيان هذا الوضع في غياب قوة الردع الساسانية فيسيطر على هذا الموقع الاستراتيجي الهام. وهذا ما حصل بالفعل سنة 525 فان "السفن قدمت على النجاشي من قيصر فحمل فيها الجيش ونزلوا ساحل اليمن واستجاش ذو نواس بأقيال حمير فامتنعوا من صريخه وقالوا كل أحد يقاتل على ناحيته فألقى ذو نواس باليد ولم يكن قتال"[10]. فلا مجال عندئذ للاخذ بما قيل عن امتحان جوستين وجستينيان

8- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 107.

9- قرآن (البروج، 3-7).

10- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 115.

المونوفيزيين بالشكل الذي تحدّثت عنه الكتب التمجيدية اذ كانت الديانات السماوية تتخذ في كل العصور مطيّة للسيطرة على الأرض.
واذن فانّه يمكن القول ان سياسة زينون رغم ما أدخل عليها جوستين وجوستينيان من تشذيب قد آتت أكلها فلقد استقر الوضع نسبيا جنوب الشام ولم يُخيّب أحفاد قصي أمل البيزنطيين فيهم فالتزموا الحياد وانهمكوا في التجارة فكانوا أكبر المستفيدين من اندثار الهيمنة الحميرية:

ثم ان المطلب هلك بردمان من اليمن، فقام بأمر بني هاشم بعده عبد المطلب بن هاشم وأقام الرفادة والسقاية للحاج على أحسن ما كانوا يقيمونه بمكّة من قبله، وكانت له وفادة على ملوك حمير (حتى سنة 525) والحبشة (بعد هذا التاريخ)[11].

هذه السياسة بعيدة النظر لم تتوفّر للدولة الساسانية طيلة هذه الفترة وحتى عصر كسرى أنو شروان (531 – 579) رغم أن الوضع الذي وصفنا في الفصل السابق (الخطر الهيطلي في الشرق والمجاعة التي سببها جفاف دام سنوات وكثرة حالات التنصر في الطبقات العليا من المجتمع) كان يحتاج الى سياسة بعيدة النظر تحدّ من الانهيار الاجتماعي والسياسي فظهرت نتيجة هذه الوجوه العديدة لأزمة المجتمع الساساني الدعوة المزدكيّة الوثيقة العلاقة بمانوية النبي ماني في القرن الثالث الميلادي رغم بعض الاختلافات الثانوية ذلك أن المزدكية كانت تختلف عن المانوية في اعتبار "ان الظلمات لا تتصرّف، على عكس النور، عن طواعية وعن قصد انما عشوائيا وصدفة وبذلك لا يكون الامتزاج بين النور والظلمات الذي ولد منه العالم المادي كما جاء في دعوة ماني، نتيجة تدبير وانما نتيجة صدفة عمياء. واذن فغلبة النور تبدو أكثر ظهورا في المزدكيّة مما هي في المانوية وهذا يعني أن الله الخيّر (النور) قد هزم الاله الشرير (الظلمات) ولذلك فلا بد من عبادة الله القاهر. غير أن هذا النصر الالهي لم يكتمل اذ مازال العالم المادي الذي هو خليط من العنصرين الأساسيين موجودا

11– المرجع السابق، ص 696.

ولذلك فإن غاية تطوّر هذا العالم تتمثّل في تحرير ذرات النور مما يخالطها من الظلمات"[12].

فالمزدكية رغم الفروق البسيطة بينها وبين المانوية تناقض الزرادشتية اذ تقترح على الانسان أن يتحرّر من الظلمات (الجسد، المال، الارض أي المال والبنون) بالاعراض عنها جميعا وبما أن الملكيّة فقدت الى هذا الحدّ شرعيتها (كظلمات مآلها الهزيمة) فقد دعت المزدكيّة الى الغائها. غير أن المزدكية وهي تدعو عامة الناس الى شيوعية تنهي الصراع بينهم حول الارض والثروة والنساء فرضت على المزدكيين الخلّص أن يكونوا في منزلة خاصة يبلغها المرء عندما يعرض عن الزواج وأكل لحم الحيوان...

ان مثل هذه الدعوة لا يمكن أن لا تجذب اليها الفئات الضعيفة في المجتمع الساساني. وعلى العكس من هذه الفئات رأى فيها رجال الدين وقطاع كبير من الطبقة الاقطاعية أعظم خطر يهدّد الدولة والدين السنّي. وقد ازداد احساسهم بالخطر عندما أسر البرابرة الهيطل فيروز أثير رجال الدين ولم يطلقوا سراحة الا مقابل فدية اضطر لتوفيرها الى تقديم ابنه قوّاذ رهينة للهيطل مدة سنتين وعندما عاد فيروز الى محاربتهم مني بهزيمة ثقيلة اذ انهزم الجيش الساساني (484) وقتل هرمز وسقطت ابنته أسيرة في أيدي الهيطل فضمها ملكهم الى حريمه واجتاح مقاطعات عديدة من ايران منها هراة وفرض على الايرانيين اتاوة سنوية ثقيلة ستثقل كاهلهم عقودا طويلة[13].

لقد حاول رجال الدين والاقطاع أن يضعوا حدّا لتفتّت الدولة فاختاروا يلاوش (484 – 488) أخا فيروز خليفة للشاة القتيل ولكن ذهب جهدهم عبثا. وعندما خلفه قوّاذ أبو كسرى أنو شروان (488 – 531) أصيبوا بفزع حقيقي اذ اعتنق الشاه الجديد نفسه... المزدكيّة[14].

12- ص 336 ... Christensen. - L'Iran.

13- المرجع السابق، ص 289.

14- يبدو أن هناك صلة بين معاني لفظ "قوّاد" في العربية ومزدكيّة "قوّاذ".

ان الآراء تختلف في تحديد أسباب اعتناق قوّاذ المزدكيّة هل هي أسباب عقدية أم سياسية. ولن تحل هذه المسألة في نظرنا تماما كما لن تحل مسألة اعتناق قسطنطين المسيحيّة. على أن ما لابدّ من الاشارة إليه هو أن انتصار المسيحيّة واتخاذها دينا للدولة مردّه الى تغلغل هذا الدين في مجتمع الامبراطورية على امتداد ثلاثة قرون وليس ذلك شأن المزدكيّة التي لم تتجذّر في المجتمع الساساني ولذلك ما لبث رجال الدين وكبار الدولة أن دبروا انقلابا في البلاط الساساني فعزلوا قوّاذ (496) ونصّبوا أخاه جاماسات (496 – 498) مكانه على العرش الساساني فهرب قوّاذ من سجنه الى الهيطل خصوم الساسانيين يطلب عونهم على اعدائه وقد مكنوه من مبتغاه وفرضوا عليه ثمنا لذلك اتاوة جعلت من الدولة الساسانيّة دولة تكاد تكون تابعة للهيطل.
كتب ابن خلدون متحدثا عن استنجاد قوّاذ بالهيطل :

وفرّ قوّاذ من محبسه ولحق بالهياطلة وهم الصغد مستجيشا لهم ومر في طريقه بأبو شهر فتزوّج بنت ملكها وولدت له أنوشروان. ثم أمدّه ملك الهياطلة فزحف الى المدائن لست سنين من مغيبة وغلب أخاه جاماسات واستولى على الملك"[15].

هذا الاختلال الخطير في وضع الدولة الساسانيّة طيلة الفترة التي عقبت وفاة يزدجرد الثاني وخاصة أثناء حكم قوّاذ سينجرّ عنه ما يشبه الفراغ في المناطق التي تشرف عليها امارة الحيرة وليس من الصدفة أن اندلعت في هذه الفترة حرب البسوس الذي قيل انها دامت أربعين سنة أي بالضبط من فترة الاضطراب الحاصل زمن قوّاذ الى فترة تولي كسرى أنو شروان الحكم وتمكنه من اعادة هيبة الدولة الساسانية سواء داخل الامبراطورية الساسانية أو في المناطق الخاضعة لامراء الحيرة:

واشتعلت نيران الحرب بين بكر وتغلب حوالي أوائل سنة 490 وذلك أن البسوس، وهي خالة جساس بن مرّة الشيباني كان لها ناقة يقال لها سراب فرماها كليب وائل في حماه، وقد كسرت بيض حمام كان قد اجاره فرمى ضرعها بسهم، فوثب

15- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 356–357.

جساس على كليب فقتله، فهاجت حرب بكر وتغلب ابني وائل بسببها أربعين سنة، حتى ضربت العرب بتشاؤمها المثل"[16].

هذه الحرب وما شابهها وقعت في ظروف لابدّ من تنزيلها فيها حتى تتّضح أسبابها الحقيقية لا الأسباب القريبة المباشرة وهذا الفهم العميق للاحداث هو الحري وحده بتبرئة العرب لذلك العهد من تهمة تهوّر تفسر بمقتضاه حرب دامت أربعين سنة سبب كالذي سبق ذكره "أي ناقة كسرت بيض حمام".

ان فترة حكم قوّاذ تعتبر طويلة ولكن السنوات الاربعين التي قضاها في الحكم يكاد لا يخلو عقد منها من هزة اجتماعية او عقدية او عسكرية فكأن الدولة الساسانية أصبحت محكومة، رغم حكم أنوشروان الذي ستستعيد فيه الدولة بعض حيويتها، بمنطق التفتت فالانهيار فقوّاذ نفسه لم يستعد حكمه الا بعون خارجي. واذا كان الهيطل قد مكنوه من الحكم فهم قد ربطوه بهم سياسيا وقد تزوّج من ابنة الخاقان التي انجبها من أسيرته الساسانية ابنة فيروز ولكن هذه المصاهرة لم تمنعم من الابقاء على الضريبة الثقيلة التي فرضوها عليه فاتجه حفاظا على الاتفاقية الهيطلية ـ الساسانية الى الدولة البيزنطية يطلب عونها المالي وقد قلّت مداخيله نتيجة تخفيف الضرائب على رعاياه تطبيقا للمزدكية ولكن الدولة البيزنطية لم يكن من صالحها أن تتوثّق العلاقة بين الساسانيين والهيطل أكثر مما أصبحت عليه فرفض أنستاز (491 ـ 518) مدّه بقرض يخفف من عجزه المالي واندلعت الحرب بين الامبراطورتين بداية من سنة 502 بشكل متقطع لم يحرز فيه واحد من الطرفين نصرا حاسما رغم أن الهيطل وجيشا من اللخميين بقيادة النعمان بن الأسود (النعمان الثاني قتل 502) قد شاركوا في هذه المعارك انتصارا للساسانيين. وقد اضطر قوّاذ حالما أحرز بعض الانتصارات الى عقد هدنة مع البيزنطيين سنة 505 للحدّ من نزيف الخزينة.

كان هذا هو وضع قوّاذ عندما انضاف الى الضغط البيزنطي في الغرب والهيطلي (الانصار الاعداء) في الشرق خطران جديدان : قبائل الهيطل البيض

16- كحالة (عمر رضا)... معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، ج 1، 1968 - ص95.

في الشمال وقبائل كندة الزاحفة من الجنوب اذ قد حدث في هذه الفترة فراغ في عرش الحيرة لمدّة قصيرة ملك بعدها المنذر الثالث (503 ـ 518) مرة أولى خاض فيها حروبا دائمة ضد العرب الجنوبيين الذين تمكّن ملكهم الكندي الحارث سنة 518 من افتكاك عرش الحيرة (518-527) ثم ملك مرة ثانية (528-554) بعد قتل الملك الكندي واستعادة عرشه الضائع:

ان حالة الضعف التي ألمّت بالامبراطورية الايرانية عقب الاضطرابات الشيوعية اذا كانت لم تحل بين قوّاذ ومواصلة حربه ضدّ البيزنطيين قد سمحت للحارث بن عمرو من قبيلة كندة بطرد المنذر الثالث من عرش الحيرة والاستيلاء على السلطة الملكية"[17].

وقد عمد الحارث الكندي الذي سيحكم الحيرة حتى هزيمته سنة 528 على يدي خصمه الملك المخلوع المنذر الثالث الى توزيع الحكم في المنطقة الشاسعة التي أشرفت عليها كندة على أبنائه الاربعة. فعيّن شرحبيل على ضبّة والرباب وتميم وبكر وسلمة على تغلب والنمر وبهراء ومعد يكرب على قيس وكنانة وحجر والد الشاعر امريء القيس على بني أسد.

غير أن سرعة انتشار السيطرة الكندية لم تكن تعني قدرة الكنديين على المحافظة على هذا الملك الواسع فقد انقض أمير الحيرة القديم على الحارث مؤسس الامارة الكندية بجيش مكوّن من "تغلب وبهراء واياد من سكان العراق وتمكن من قتله سنة 528 أو سنة 529 وبذلك عاد المنذر الى حكم الحيرة في الوقت الذي آل فيه أمر فارس الى كسرى أنو شروان خلفا لوالده قبّاذ"[18] ولن يكون مصير أبنائه بأفضل من مصيره "فأما شرحبيل وسلمة فقد ثارت الحرب بينهما ومع كل منهما أنصاره وانجلت المعركة عن قتل شرحبيل قتله عصّم بن النعمان التغلبي وكان مع سلمة ثم عادت تغلب فأخرجت سلمة عنها فلجأ إلى بكر محتميا بها وأبت بكر أن تُسلِمَه لاعدائه من تغلب أو المنذر أمير الحيرة"[19]

17- ص 354 - ...Chistensin. - L'Iran

18- النجار ... علاقة... - ص 38.

19- المرجع السابق، ص 39.

و"أما حجر بن الحارث (أبو امريء القيس الشاعر) فلم يزل أميرا على بني أسد الى أن بعث رسله في بعض الايام لطلب الاتاوة من بني أسد فمنعوها وضربوا الرسل. وكان حجر بتهامة فبلغه الخبر فسار إليهم في ربيعة وقيس وكنانة فاستباحهم وقتل أشرافهم وسرواتهم، وحبس عبيد بن الابرص في جمع منهم، فاستعطفه بشعر بعث به اليه فسرّحه وأصحابه وأوفدهم فلمّا بلغوا اليه هجموا عليه فقتلوه وتولّى قتله علباء بن الحرث الكاهلي، كان حجر قتل أباه. وبلغ الخبر امرئ القيس فحلف أن لا يقرب لذّة حتى يدرك بثأره من بني أسد"[20].
وعبثا حاول هذا الامير الكندي الاستنجاد بجوستينيان لاستعادة ملك أبيه فاضطر إلى الانتقال من مكان الى مكان هربا خاصة من مطاردة أمير الحيرة. وقد عبّر عن وضعه ذاك قائلا:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد نضيف استطرادا أن بعض من ذكرنا من الشعراء سيتخذون قدوة في الشعر ومثلا أعلى سعى النقاد المحافظون الى الاقناع بضرورة الحذو حذوه والحال أن القوم لا يمثلون على مستوى القيم أو اللغة الا ما يمكن ان تمثّله فترة كالتي وصفنا بكل ما تعنيه من نسبية يفرضها كل قراءة تاريخيّة لحياة الأمم.
فمن الواضح اذن أن الانكسار الساساني (استيلاء الاحباش على اليمن سنة 525، الحرب الساسانية البيزنطية 527، التمرد المزدكي 528...) كان قد بلغ في الثلث الاول من القرن السادس حدّ الخطر وستقلب ولاية كسرى أنوشروان وعودة المنذر الى امارة الحيرة الموازين بين الدولتين العظميين الايرانية والبيزنطية رغم أن هؤلاء قد ظفروا بدورهم بأمير غساني تابع من الطراز الاول هو الحارث بن جبلة (529-569) وبظفرهم هذا سوف يصل الصراع العربي - العربي بين المحميتين أقصى ما وصله من قبل حكمهما ومن بعد.

20- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 573.

الفصل السادس

عصر جوستنيان وكسرى أنو شروان وعبد المطلب بن هاشم

يميل المؤرخين إلى نسبة القرن السادس إلى جوستنيان الذي كان منذ 518 يشارك جوستين (518–527) فعّليا في الحكم قبل ان يخلفه سنة 527 فيمتدّ حكمه إلى سنة 565. ويمكن أن نعمّم هذه النسبة فتشمل شاه الساسانيين كسرى أنو شروان (أي الروح الخالدة) إذ امتدّ حكمه طيلة نصف قرن (531–579).

في هذه الفترة ظهر أشهر امراء العرب الموالين للقوتيين العظميين: المنذر (503–518 ثم 528–554) وابنه عمرو بن هند (554–569) في الحيرة والحارث بن جبلة (527–569) في بصرى. أما في مكة فيعتبر عبد المطلب (ت 579) معاصرا لمن ذكرنا من الملوك والأمراء.

تبدو شخصية جوستنيان ونظرته السياسية محلّ خلاف عند المؤرخين إذ فيهم من يمتدح اجتهاد الامبراطور في استعادة ما ضاع من الامبراطورية في الغرب والشمال الافريقي وفيهم من يرى أن هذا الجهد ذاته لا يعدو ان يكون تعبيرا عن روح ماضوية زادت من ضعف الجزء الشرقي من الامبراطورية من دون أن تحقق نتيجة باقية في جزئها الغربي.

وفعلا فقد تعددت على عهده الحملات ضد المتبربرين من الاستروغوط في ايطاليا والوندال في افريقيا الشمالية وقد يكون من أسباب تشجيع جوستنيان على مشروعه هذا ما شهده من ضعف وندالي مكّن القبائل البربرية من الانتصار على هيلديريك (523–530) وأحدث نزاعا داخل الحكام الوندالي انتهى بافتكاك جيليمير الحكم (530–533) وكذلك ما شهده من هذا التناحر البربري–البربري الشبيه إلى حدّ كبير بالتناحر العربي في الشرق الأدنى.

كتب عبد الله العروي متحدثا عن مملكتي يبداس Yabdes في الأوراس وأنتالاس Antalas في الوسط والشمال الغربي التونسيين:

> كانت مملكة أنتلاس التي حدّد موقعها في الشمال الغربي التونسي قد قاومت كذلك الوندال وكانت الهزيمة التي الحقتها بهم سنة 530 بمثابة الاعلان عن نهاية حكمهم في الشمال الأفريقي ذلك أن هذه الهزيمة هي التي استثارت شجاعة الكاثوليك وامبراطور بيزنطة. إن أنتلاس سيُعين البيزنطيين وقد اعترفوا بصفته الملكية في حربهم ضد يابداس ولكنه سيثور عليهم هو بدوره عندما سيعاملونه بفظاظة بعد أن أحسوا بامكانية الاستغناء عنه فيلحق بهم هزيمة سنة 545 ليهزمه في السنة التي تلتها القائد البيزنطي تروغليطا [1]

لقد استغلّ جوستنيان وضع الوندال والبربر فبعث بقائده الشهير بليساروس Belisaire (ت 565) إلى قرطاج يزيل دولة الوندال (533) أولا ويمهدّ لمن خلفوه من القادة الطريق لكبح النزعات الاستقلالية البربرية.

ولكن هذا الانتصار البيزنطي في منطقة بعيدة كالشمال الافريقي عن بيزنطة ثم في ايطاليا ليس في نهاية الأمر انتصارا حقيقيا ودائما إذا استحضرنا ما كانت تشهده بلاد البلقان ذاتها من زحف السلافيين من بلغار وسرب وكروات وسلوفينيين وبسنيين على كامل المنطقة بل تهديدهم بيزنطة مركز الامبراطورية فقد

> احتاز السلافيون على عهدي جوستين الأول وجوستنيان الدانوب في غزوات مدمّرة بلغت البحر الادرياتي وخليج كورنثة وساحل بحر ايجة وكانوا يهاجمون المدن ثم ينسحبون شمال النهر[2]

بل أن بيزنطة ذاتها تعرضت لصعوبات اجتماعية داخلية أسفرت عن انتفاضة دموية سنة 532 سيطر فيها المتمردون على العاصمة طيلة ثلاثة أيام وأسلموها للحرق والنهب فلم تسلم حتى أيا صوفيا من النهب ولم يتمكن القائد بلساريوس من إخمادها إلا بعد سقوط ما لا يقلّ عن ثلاثين ألف قتيل[3].

وتقارب تارخيّ الأزمة البيزنطية الداخلية (532) واستعادة بيزنطة هيمنها على

1- Abdellah Laroui: L'Histoire du Maghreb, tome 1, 1976, p. 69.

2- Georges Castellan: Histoire de Balkans, 1992, p. 35.

3- P. Lemerle: Histoire de Byzance, p.55

الشمال الأفريقي (533) هو الذي دعا بعض المؤرخين إلى ان يروا في سياسة جوستنيان ما يشبه سياسة تحويل الأنظار عن الأزمات الداخلية بتوجيهها نحو هدف خارجي. وإذن فكل هذه الأحداث هي التي تفسّر كما قلنا اختلاف المؤرخين في تقييم عهد هذا الامبراطور.

إن ملكا ككسرى أنو شروان لا يمكن إلا أن يفكر في استغلال انشغال الامبراطور البيزنطي بالحرب في الغرب وبالصعوبات الاجتماعية الداخلية. إذ ليس من باب التهور والسياسة غير المخططة أن أعلن الشاه الحرب على البيزنطيين رغم صلح سنة 532 والحق بهم هزائم فادحة. فقد اجتاح سوريا سنة 540 وفرض أتاوة على جوستنيان ولكن هذه الحرب والحروب اللاحقة لن تكون حاسمة إذ كانت الدولتان وهما تتحاربان تتعرضان إلى ضغط عسكري كان يهددهما معا.

فكسرى نفسه كان مضطرا إلى حلّ قضايا ثلاث ورثها عن أبيه. كان عليه أن يتخلص من خطر الهيطل في الشرق الذين كانوا ما زالوا يخضعون الساسانيين لشروط الاتفاقية التي قيّدوا بها قوّاذ ومن ضمنها ضرورة دفع أتاوة ثقيلة. وكان عليه أن يحل قضية الهون في الشمال وكان عليه أن يجدد صيغ التعامل مع الإمارة العربية في الحيرة. ولا يمكن ايجاد حلول لمثل هذه القضايا الخارجية إلا بتجديد قوّة الدولة وإعادة الوحدة الوطنية التي تفتت أثناء الحركة المزدكية واستيلاء الضعفاء على أملاك النبلاء وعلى النساء واحتداد الصراعات الدينية في المملكة. وفعلا فقد بدأ كسرى أنو شروان باصلاحات داخلية أجمل المؤرخون العرب القول فيها فأطلقوا عليها عبارة "عدل كسرى" وهي تتمثّل في اعادة الممتلكات إلى اصحابها القدامى وفي صياغة حلول لقضايا النساء المختطفات والسعي إلى فرض نظام جبائي يراعي حجم الملكية ويعمم الضريبة الشخصية على كل الايرانيين ما بين 20 و 50 سنة باستثناء "النبلاء والأعيان والجنود ورجال الدين والكتبة ومن هم في خدمة الملك"[4]. وراعى في هذه

4- Christensen, L'Iran....p. 361.

الضريبة كما راعى في الضريبة العقارية حالة دافعي الضريبة المالية وسهر على أن تطبق تعليماته بشكل صارم يمنع تجاوزات القائمين على تطبيق القانون.

لقد حازت هذه الاجراءات على رضا الناس عموما ووفرت للخزينة مداخيل أكبر وعززت منزلة الدولة. وإذن فهي لم تكن كما صورها بعض المؤرخين تأثرا منهم بما رسخ منها في أذهان معاصريه من العرب الذين كانوا يعيشون خارج نطاق الدولة المنظمة العريقة في العمل بالدساتير نابعة من نوع من "الحكمة الفطرية" بقدر ما كانت صادرة عن عقل سياسي فهم أن الشيوعية المزدكية إنما نتجت عن اختناق احتماعي حقيقي فعمل كسرى لا على انتهاج النهج السياسي القديم ولا على قلب الأوضاع وإنما على اقرار نوع من الاصلاح يعزز الدولة ويوحّد النسيج الاحتماعي. يبدو هذا النفاذ السياسي واضحا حتى في الاجراءات القانونية التي أصبحت تعتمد التدرج في العقاب حفاظا على قوة عمل المجرمين:

فخلافا لما ساد في الازمنة السابقة أصبح تنفيذ الاحكام القاضية ببتر الأعضاء يراعي ضرورة الحفاظ على قوة عمل المجرمين، ففي حالة الزنا مثلا يقع الاكتفاء بقطع الأنف. وإذا عاد المجرمون المحكوم عليهم بتعويض مالي وفوا باداته إلى ارتكاب عمل مخالف يقع قطع آذانهم وأنوفهم ويحرمون من كل عفو جديد"[5].

ولعل أفضل ما يدل على تهافت صورة كسرى التقليدية "الاجراءات الأمنية الخاصة التي كانت تتخذ حماية للملك من محاولات الاغتيال. فلا أحد يعرف المكان الذي ينام فيه الملك كل ليلة. ويحكى أن اربعين سريرا كان يقع تهيئتها في أماكن مختلفة لاردشير الأول وكسرى الأول (أنو شروان) وكسرى الثاني (أبرويز) وفي بعض الأحيان لا ينام الملك في أي واحد منها وإنما في غرفة من الغرف البسيطة وهو يتوسّد ذراعه"[6].

5- المرجع السبق، ص 373.

6- م.س. ص.374

إن أهم الأسباب التي دفعت بالمؤرخين القدامي إلى رسم صورة مشرقة لكسرى أنو شروان هو تنزّل فترة حكمه بين فترة الفوضى المزدكية وفترة خلافة أعقابه المضطربة التي انتهت بذهاب الدولة الساسانية .

وحتى ما ينسب إلى عصره من ازدهار أدبي أو فلسفي يعتبر الطبيب برزويه الشهير في التآليف العربية القديمة أفضل تعبير عنه، ليس في نهاية الأمر غير نتاج لانتشار الحضارة الاغريقية الرومانية من ناحية والهندية من ناحية أخرى في البلاد الايرانية التي كانت قبلة المعارضين الدينيين والسياسيين للدولة البيزنطية فاعتبر علامة تسامح فكري أضاف إلى صورة كسرى مزيدا من الاشراق. ومن الأمثلة على ما يبدو تسامحا فكريا أنه عقب إغلاق مدرسة أثينا الفلسفية سنة 529 واضطهاد فلاسفتها لجأ سبعة من هؤلاء هم داماسيوس السوري Damascios وسيمبليسيوس وليد قيليقية Simplicius وأولاميوس الفرّيجي Eulamios وبريسيانوس الليدي Priscianos والفينيقيان هيرمياس و ديوجينيوس Hermias et Diogène وايزيدورروس غزّة Isodore فقابلهم كسرى أنو شروان بكل ترحاب. وفي الحقيقة فإن ظنّ هؤلاء العلماء البيزنطيين قد خاب إذ رأوا ما تتسم به عادات الايرانيين من بربرية وشاهدوا فظاعة الاضطهاد التي تتصف به معاملة الطبقة السائدة عامة الايرانيين فغادروا البلاد ساخطين. ومع ذلك فقد تبنّى كسرة مطالبهم وتمكّن عند عقد معاهدة السلم الساسانية-البيزنطية من الحصول على حقّهم في حرية العودة إلى وطنهم[7].

إن ما يدخله كريستنسن ضمن روح تسامح كسرى لا يعني في الحقيقة غير دهاء سياسي. والواقع الحالي في القرن العشرين يثبت أن قوة عظمى قد تدافع عن حريات مواطني خصمها السياسي من دون أن يكون ذلك اعتناقا منها لطريقة تفكيرهم أو تعبيرا عن روح التسامح التي لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تقاس إلا على اساس مَدى ما يتمتع به مواطنوها هي من حريات.

ومع ذلك فالذي لا جدال فيه هو بعد نظر كسرى أنو شروان السياسي. لقد كان عليه أن يقاوم الهيطل في الشرق و الهيطل البيض في الشمال

7- م.س. ص 424

والبيزنطيين في الغرب وفي اليمن والعرب البدو على حدوده الجنوبية. واعلان الحرب في كل هذه الجبهات أمر لا يدل على بعد نظر سياسي لذلك رأى أن يواصل دفع أتاوة للهيطل وان يتفرغ لحرب الروم حتى تتاح الفرصة لضرب الهيطل. ومحاربة الروم تعني محاربة أتباعهم من غساسنة سوريا ومن أحباش اليمن. من هنا كانت سياسته المتمثلة في إعادة توثيق صلاته بالمنذر بن النعمان (مونذر بر نعمن ملك العرب). وعندما اندلعت الحرب من جديد بين الامبراطوريتين واجتاح سوريا وخرّب انطاكية سنة 540 كان ملك الحيرة عضده في هذه الحرب كما كان الحارث بن جبلة الغساني (529–569) عضد جوستنيان. وهكذا اضطر البيزنطيون إلى دفع أتاوة ثقيلة واشتدت العداوة بين الخصمين العربيين التابعين المنذر بن النعمان والحارث بن جبلة واتسع نطاق صراعهما فبدا اللخميون وكأنهم في وضع الفريسة الواقعة بين الفك الغساني في الشمال والفك الحبشي في الجنوب من دون أن ينجحوا في كسب مضريي قريش الذين اختاروا الحياد إلى صفهم:

كان أبرهة قد أمعن في بلاد معدّ غزوا وتحدّث أحد النقوش عن تسلطه على بعض قبائل بني عامر في ديارهم مما يلي اليمن وكانت تمتد حتى تصل إلى بلاد الحارث بن كعب بنجران من جهة الشرق وأن أبرهة قد قام بغزوها في الربيع من شهر ذي ثبتان، إلا أن عمرو بن هند أعطى ورهن من أجلهن الرهن وأبعد خطره عن تلك المناطق التي آل أمرها إلى المنذر الثالث، وتاريخ هذا النقش يوافق 544.[8]

كتب ابن خلدون عن غزو معدّ وعن أسباب تراجع الأحباش نقلا عن الطبري:

وكان فيما زعموا قد ذهب مع عبد المطلب عمرو بن لعابة بن عدّي بن الرمل سيد كنانة وخويلد بن واثلة سيد هذيل وعرضوا على ابرهة ثلث أموال تهامة ويرجع عن هدم البيت فأبى عليهم فانصرفوا. وجاء عبد المطلب وأمر قريشا بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب للتحرز فيها ثم قام عند الكعبة ممسكا بحلقة الباب ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه وعبد المطلب ينشد ويقول في أبيات معروفة:

لا هم أن العبد يمنع
رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم
ومحالهم أبدا محالك

8- النجار، علاقة....ص. 46

وانـتـصـر عـلـى آل الـصـلـيـب
وعـابـديـه الـيـوم آلـك

ثم أرسل الله عليهم الطير الأبابيل من البحر (يقصد البحر الأحمر) ترميهم بالحجارة فلا تصيب أحد منهم إلا هلك مكانه واصابه موضع الحجر من جسده كالجدري والحصبة فهلك واصيب أبرهة في جسده بمثل ذلك، وسقطت أعضاؤه عضوا عضوا وبعثوا بالفيل ليقدم على مكة فربض و لم يتحرك فنجا، وأقدم فيل آخر فحصب وبعث الله سيلا مجحفا فذهب بهم وألقاهم في البحر ورجع أبرهة إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فانصدع صدره على قلبه ومات[9].

إن ما تجدر الإشارة إليه أن حكم المنذر إن بدا في بلاد معدّ بالضعف الذي رأينا معه إبنه الوالي عمرو بن هند يلتجيء إلى ما يشبه دفع الأتاوة حتى يقبل أبرهة بالتراجع عن التقدم نحو الشمال فمرد ذلك إلى بعد الحجاز عن مركز الإمارة في الحيرة ووقوع عمرو بن هند بين ضغط الغساسنة وضغط الأحباش. أما في غير هذه المنطقة فستبرز قوة اللخميين بشكل واضح حتى أن المنذر تمكّن من أسر ولد للحارث بن جبلة قدّمه قربانا إلى العزّى سنة 544 ففتح للثأر القبلي بابا جديدا لم تخمده الهدنة الساسانية البيزنطية سنة 522 إذ قتل الحارث بن جبلة الغساني في يوم حليمة سنة 554 خصمه المنذر بن النعمان اللخمي واسر امرئ القيس بن المنذر فأثار بذلك حميّة أمير الحيرة الجديد عمرو بن هند (554–569) وروح التشفي عند الغسانيين فنظم شعراؤهم في ذلك القصائد ومنهم عديّ بن رعلاء الغساني:

ربـمـا ضربـة بسـيـف صقيـل ... دون بـصـرى، فـطـعـنـة نـجـلاء
وغـمـوس تـضـلّ فيـهـا يـد الآ ... سي ويعيـا طبيبـهـا بـالـدواء
رفـعـوا رايـة الـضـراب وآلـوا ... ليـذودّن سـامـر الـمـلـحـاء
فـصـبـرن الـنـفـوس للطعـن حتـى ... جـرت الخيـل بـيـنـنـا بـالـدمـاء

كان الغسانيون يبكون واحدا منهم قدّمه أمير الحيرة قربانا لصنمه وها أن الحيرة تصاب في أميرها القتيل وابنه الأسير. فأي واجب على الأمير الجديد ابن المنذر اللخمي وهند بنت الحارث الكندية الملقب بعمرو بن هند يمكن أن

9- ابن خلدون، العبر، ج3، ص 119.

يحظى بالأولوية أكثر من واجب الثأر للأب القتيل والأخ الأسير؟ إن المعاهدة التي ستنعقد بين كسرى أنو شروان وجستنيان سنة 561 ستتضمن شروطا قاسية فرضها الساسانيون على البيزنطيين منها ضرورة مواصلة دفع أتاوة إلى كسرى والإحجام عن تشجيع نشر المسيحية في البلاد الايرانية كما تتضمن فيما يتعلق بالغسانيين واللخميين حظرا صريحا للغزو بين الامارتين قد يتسبب في نقض الصلح بين الدولتين العظميين مما يشي منذ هذه الفترة المبكرة بتقلص دور الامارتين في اللعبة السياسية العالمية ولكن هذا الصلح لن تكون لها تأثير في علاقات تابعيها عمرو بن هند والحارث بن جبلة العدائية بعد أن تنزّل الثأر منزلة الأولوية في سياسة الامارتيين الجنوبيتي الأصل.

وفي حين وجه كسرى جهوده كلها إلى مقاومة الهيطل (الخزر) حتى تمكن من القضاء عليهم بين 563 و 567 والى القضية اليمنية فبعث بوهرز احد قواده في جيش من الديلم لاعانة سيف بن ذي يزن على طرد الأحباش[10]، كان عمرو بن هند منشغلا بتجميع القبائل استعدادا للثأر من الغساسنة. وقد انحازت له بعض القبائل الواقعة تحت سلطانه "مثل بكر وبعض تميم والقبائل المتحالفة معه ولكنها لا تدين له مثل بني أسد وطيء وغطفان"[11]. وتجاهلت دعوته قبائل أخرى كتغلب التي تمنعها عداوتها لبكر من مناصرة أمير تناصره شقيقتها العدنانية. وبهذا انضاف إلى الصراع القحطاني القحطاني ممثلا في تنوخي الحيرة وغساني بصرى صراع عدناني عدناني ممثل في الصراع التغلبي البكري واضطرت تغلب تبعا لذلك إلى الايغال في الشمال الدجلي-الفراتي يلاحقها غضب عمرو بن هند فتردّ عليه بروح تمرد عبر عنها شاعرها عمرو بن كلثوم:

10- من المدحيات التي قيلت في كسرى أنو شروان في هذه المناسبة، لامية ابن ابي الصلت وقد جاء فيها:

لله درّهم من عصبة خربوا ... ما أن أرى لهم في الناس أمثالا
بيضا مرازبة غلبا أساورة ... أسدا تربّب في الغيضات أشبالا
يرمون عن شدف كأنما غبط ... بزمخر يعجل المرمي اعجالا
أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد ... أضحى شريدهم في الأرض فلالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا ... في رأس غمدان دار منك محلالا

11- النجار، المرجع السابق ص ...

أبـا هنـد فـلا تعجـل علينـا ... وأنظرنـا نخـبرك اليقينـا

بأنّـا نـورد الرايـات بيضـا ... ونصدرهـن حمـرا قـد روينـا

وايـام لنـا غـرّ طـوال ... عصينـا الملـك فيهـا أن ندينـا

متـى ننقـل إلى قـوم رحانـا ... يكونـوا في اللقـاء لهـا طحينـا

يكـون ثفالهـا شـرقي نجـد ... ولهوتهـا قضاعـة أجمعينـا

نزلتـم منزل الاضيـاف منـا ... فاعجلنـا القـرى أن تشـتمونا

قرينـاكم فعجلنـا قراكـم ... قبيـل الصبـح مـرداة طحونـا

ورثنـا المجـد قـد علمـت معـد ... نطـاعن دونـه حـتي يبينـا

ألا لا يجهلـن أحـد علينـا ... فنجهـل فـوق جهـل الجاهلينـا

بـأي مشـيئة عمـرو بـن هنـد ... تطيـع بنـا الوشـاة وتزدرينـا

تهددنـا وتوعدنـا رويـدا ... متـى كنّـا لأمـك مقتوينـا

فـأنّ قناتنـا يـا عمـرو أعيـت ... علـى الأعـداء قبلـك أن تلينـا

فهـل حدّثـت في جشـم بن بكـر ... بنقـص في خطـوب الأولينـا

ورثنـا مجـد علقمـة بـن سـيف ... أبـاح لنـا حصـون المجـد دينـا

ورثـت مهلهـلا والخـير منـه ... زهـيرا نعـم ذخـر الذاخرينـا

وعتابـا وكلثومـا جميعـا ... بهـم نلنـا تـراث الأكرمينـا

وذا الـبرة الـذي حدّثـت عنـه ... بـه نحمـي ونحمـي المحجرينـا

ومنّـا قبلـه السـاعي كليـب ... فـأي المجـد إلا قـد ولينـا

وقد عمد عمرو بن هند إلى انزال العقاب بتغلب قبل أن يفرغ إلى محاربة الغساسنة فدفع قانون الثأر التغالبة إلى قتله (569) قتلة صاغها الرواة القدامى في شكل قصصي هو أقرب إلى الاسطورة منه إلى التاريخ. وقد عبر الشاعر الحارث بن حلّزة عن شدّة امتحان عمرو بن هند التغالبة:

ثم خيل من بعد ذاك مع الغـــــــــلاّق لا رأفة و لا ابقاء.

فكيف يمكن من بعد ما سلّط عمرو بن هند على تغلب من عقاب "لا رأفة ولا ابقاء" فيه القبول باسطورة المأدبة التي انتهت بمقتل عمرو بن هند؟

لقد تمكّن عمرو بن هند بعد فراغه من أمر تغلب من الحاق الهزيمة بالغسانيين من لخم وجذام وعاملة وغسان بل قتل الحارث بن جبلة نفسه (569) وأسر ابنه وأطلق سراح أخيه. قال الشاعر الحارث بن حلّزة مفاخرا بالحدث:

إذ أحلّ الغلاة قبّة ميسو	ن فأدنى ديارها العوصاء
وفككنا غلّ امريء القيس عنه	بعد ما طال حبسه والعناء
وأقدناه رب غسّان بالمنـ	ذر كرها إذ لا تكال الدماء

ولكن هذا الانتصار اللخمي سيدفع الغسانيين بعد عام إلى الانتقام في عين أباغ (570) من اللخميين إذ ألحق المنذر بن الحارث بن جبلة أمير الغساسنة الجديد (569–582) بجيش قابوس (569–573) أخي عمرو بن هند وامير الحيرة الجديد هزيمة نكراء. ويبدو أن هزيمة قابوس تعود في جانب كبير منها إلى شخصية هذا الأمير الذي لم يكن يتصف ببعض ما كان يتصف به أخوه من صفات سياسية إذ لم يحظ في نظر من عرفه من العرب الموالين للخميين بتقدير كاف. فهذا طرفة بن العبد يقول فيه:

لعمرك أن قابوس بن هند	ليخلط ملكه نوك كثير

قال فيه ذلك بعد أن عاشره مدة نزولا عند رغبة أخيه عمرو بن هند الذي طلب منه ومن الشاعر المتلمّس أن يلزما أخاه (قابوس) وكان فتى لهو وشراب وصيد[12]. لذلك سيلجأ كسرى أنو شروان مباشرة إثر موت قابوس إلى تعيين حاكم ساساني (السهرب) على الحيرة (573–574) بدل اللخميين وإن كان سيعدل بعد ذلك عن قراره فيعيد الحكم إليهم ويعين المنذر بن المنذر (574–578) أخا عمرو بن هند وقابوس على هذه الإمارة.

12– النجار، علاقة.........ص، 72.

على أن ما يجب أن نؤكد عليه هو أن السياسة الساسانية وكذلك البيزنطية قد اتجهتا منذ معاهدة 561 إلى تهميش دوري حلفائهما من اللخميين والغسانيين وستكون السنوات العشرون المتبقية من القرن السادس سنوات ضعف هذين الامارتين فينحسر عن وقائعهما الجانب السياسي العالمي لتنحصر في صراع قبلي بحت هيأ الطريق لظهور القوة العدنانية القحطانية المشتركة ممثلة في الدولة العربية الاسلامية.

إن سبعينات القرن السادس تبدو إذن حاشدة بالاحداث فقد قتل الحارث بن جبلة سنة 569 بعد حكم دام 40 سنة كما قتل في هذه السنة نفسها عمرو بن هند. واستولى كسرى على اليمن سنة 570 كما ولد محمد بن عبد الله في هذه السنة. فهذه العشرية هي عشرية التوسع الساساني على حساب بيزنطة وهي عشرية إحساس البيزنطيين بخطل سياسة جوستنيان الذي وجه نظره إلى الغرب وشمال افريقيا فتضاعفت المخاطر المحدقة ببيزنطة في عقر دارها. ومع ذلك فإذا كان الصراع الساساني البيزنطي سيتواصل فإن الدولتين العظميين أصبحتا تحسان أن صراعهما لا يعدّ شيئا إذا ما قورن بالخطر التركي على ايران في الشرق والخطر السلافي على بيزنطة في البلقان.

هذا هو في نظرنا سبب تقلص دور الامارتين العربيتين في الحيرة وبصرى ثم تلاشي هذا الدور بداية القرن السابع. وفعلا فإن البيزنطيين كانوا منذ عهد جستنيان ساخطين على سياسته الغربية فعملوا منذ وفاته (565) على إعادة النظر في هذه السياسة واجتهدوا في تخفيف الضغط الساساني عليهم في المشرق ودفع خطر السلافيين جنوب الدانوب وكان هؤلاء يزحفون نحو البلقان مدفوعين بما يشبه الحاجة الحيوية إلى "الوصول إلى منفذ على البحر الأبيض المتوسط (...) إن عصر جوستنيان قد طرح أسس القضية السلافية في البلقان"[13].

يبدو حكم جوستنيان في تاريخ بيزنطة بمثابة خطإ كان له أبعاد وخيمة إذ عطّل تطورا عاديا وضروريا. ففي حين أصبحت الامبراطورية عمليا امبراطورية شرقية

13- Paul Lemerle: Histoire de Byzance, p. 51.

وفي حين تخلّى أباطرة القرن الخامس فعليا عن الغرب رغم ابقائهم على حقوقهم النظرية عليه وضحّوا به في سبيل خلاص الشرق، ولى جوستينيان وجهه منذ بداية حكمه نحو الغرب ووجه طكوحه نحوه أي نحو الماضي وبذل من أجل بعث هذا الجزء الميت من الامبراطورية جهدا بالغا أنهك الجزء الحيّ منها.[14]

إن ما ورثه جوستين الثاني (565–578) عن سلفه يعتبر بحق كارثة: هدنة ساسانية بيزنطية مشروطة بأتاوة تدفعها بيزنطة لايران وسياسة ايرانية انتهت بوقوع اليمن طريق الهند والصين مصدري استيراد القطن خاصة في الأيدي الايرانية وحدود شمالية يهدّدها السلافيون وأزمة اقتصادية داخلية تهدّد النظام القائم وخصومة دينية حادة بين الارثوذوكسية دين الدولة والمونوفيزية دين بعض مقاطعات الدولة، إضافة إلى النسطورية وكذلك بين كبير أساقفة روما وبطريرك القسطنطينية. لذلك لم يكن بامكان جوستين الثاني وهو يتسلم الحكم غير وسيلة واحدة لتطويق الوضع: تعزيز دفاع بيزنطة جنوب الدانوب ومقاومة الهيمنة الساسانية فاجتهد في إثارة القلاقل على حدود كسرى أنو شروان الشمالية بتشجيع القبائل التركية على الإغارة على الامبراطورية الساسانية وفي إثارة القلاقل في أرمينيا النصرانية فاندلعت الحرب من جديد بين الامبراطوريتين سنة 572. وقد تمكن البيزنطيون في بداية الحرب من اجتياح ما بين النهرين ولكنهم هزموا آخر الأمر واضطروا إلى إحداث تغييرات كبيرة في قيادة جيشهم مكنتهم بقيادة موريس الذي سيتولى فيما بعد حكم الامبراطورية من إحراز نصر في بعض المواقع أجبر كسرى انو شروان على الشروع في مفاوضات سلام وقد مات سنة 579 قبل أن تفضي إلى اتفاق نهائي.

14- المرجع السابق، ص81.

الفصل السابع

أفول القوتين العظمتين

يمكن اعتبار ثمانيات القرن السادس الميلادي بداية تفتّت نهائي لحق الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية أسفر في النصف الأول من القرن السابع عن قيام الدولة العربية الموحّدة.

لقد خلف تيبير (578 – 582) الأول جوستين الثاني على عرش الامبراطورية البيزنطيّة فورث عنه وضع لا حرب ولا سلم انتهى باندلاع الحرب من جديد بين الساسانيين والبيزنطيين ثم مات بعد أربع سنوات من الحكم فخلفه القائد موريس (582 – 602) ليتفرّغ الى حرب الساسانيين .ولم يكن وضع هؤلاء في الحقيقة أفضل من وضع البيزنطيين اذ فقدت الدولة بموت كسرى أنو شروان (579) شخصية سياسية بعيدة النظر. وقد حاول ابنه هرمز الرابع (579 – 590) أن يسير سيرة أبيه ولكن وضع اليوم لم يعد شبيهها بوضع البارحة خاصة في ايران التي تقول القاعدة فيها انّه ما امتدّ حكم ملك من الملوك وهيمن على الدولة والمجتمع الا عقب فترة حكمه فترات ضعف وانحلال. وهكذا فشلت سياسة هرمز في تحقيق سلم ساسانية رومية فعمد هذا الشاه بعد ما لحق جيشه من انكسارات الى تغيير فظ في القيادة العسكرية دفع أحد كبار القادة وهو بهرام الملقّب بالرجل الخشبي (تشوبان) الى اعلان العصيان بل سعى الى الاستحواذ على الحكم.

وقد استغل بعض أفراد العائلة المالكة وضع الفوضى الذي امتدّ في الامبراطورية حتى 590 فأقالوا الامبراطور الشرعي وسملوا عينيه ثم قتلوه ونصّبوا مكانه ابنه كسرى الثاني الملقّب بـ "أبرويز" (المنتصر). غير أن القائد بهرام ما لبث أن

زحف على العاصمة المدائن فالتجأ كسرى إلى البيزنطيين طلبا للعون على خصمه الذي توّج نفسه ملكا على البلاد وضرب السكة باسمه.

هكذا قلبت الأحداث في ايران كل التوازنات القديمة ولذلك فان الامبراطور البيزنطي موريس استجاب لكسرى أبرويز ومدّه بعون مكّنه من الحاق الهزيمة بالقائد العسكري الايراني المتمرّد. وقد تنازل كسرى اعترافا منه بجميل البيزنطيين عن مدينتي دارا وميّافرقين وانقطعت الحرب بين الامبراطوريتين حتى سنة 602 عندما استغلّ فوكاس الضابط العسكري البسيط في بيزنطة ظروف انتفاضة اجتماعية وعسكرية فقتل الامبراطور موريس واستولى على الحكم. كان هذا الحدث مناسبة استغلها كسرى أبرويز لاعلان الحرب على بيزنطة ثأرا لقتل "ولّي نعمته" البيزنطي.

هذه الأحداث الغريبة التي حدّث نهاية القرن السادس كان لها تأثير بليغ سواء على وضع إماراتي الحيرة وبصرى أو على بقيّة العرب رحّلا كانوا أو مستقرين.
فالغساسنة في الشمال فقدوا قدرا من الدور السياسي والعسكري الذي يبرّر وجودهم بعد أن أصبحت العلاقة بين كسرى أبرويز وموريس بالحميمية الظاهرية على الأقل التي وصفنا ولا اتفاق بين المهتمين بهذه الفترة من التاريخ حول أسباب فتور العلاقات البيزنطيّة الغسانيّة فمنهم من رأى أنها نفسية دينيّة.

"أظهر تيبريوس (578-582) رضاه عن المنذر وقلّده التاج الملكي. ولكن الريبة غلبت على الثقة بعد ذلك فسجن رجال بيزنطة المنذر اما بطريق الحيلة أو الغدر ونفي الى صقليّة. وقد خلفه ابنه ولكن الضعف سوف ينال من الملك الغساني بسبب علاقاته ببيزنطة التي أصبحت تتراوح بين الحذر والغيرة وبين الخيانة والانتقام فخسرت الامبراطورية الرومانية دعما كم كانت بحاجة إليه بعدما لحقها من عجز عن صدّ غزوات القبائل العربية وهجمات الفرس"[1].

1- ص 62 - ... Havenith. Les arabes chrétiens

ففي سنة 580 تقريبا أمر الامبراطور تيبيريوس باعتقال المنذر وإرساله إلى القسطنطينية.وفي سنة 582 - 583 لقي ابنه النعمان من موريس العقاب نفسه. وقد ضعف الملك الغساني نتيجة لذلك أيما ضعف"[2].

ومنهم من رأى أن فتور العلاقة يعود إلى أسباب أكثر وجاهة أي إلى هذه الأسباب السياسية والمالية التي تدفع الدول الكبرى كلما حدث انفراج في العلاقات الدولية إلى التقليل من دعمها للدول الدائرة في فكلها. ولقد قلّل تحسّن العلاقات بين ايران وبيزنطة أثناء حكم كل من كسرى أبرويز (590 - 628) وموريس (582 - 602) من أهمية دور بصرى في مرحلة أولى ثم حال الانخرام المالي في الخزينة البيزنطية طيلة الحرب الساسانية ـ البيزنطية (602-628) في مرحلة ثانية دون عودة العلاقات بين الدولة البيزنطية وبين العرب التابعين لهما الى سالف عهدها :

لم تسدّد بيزنطة للغسانيين منذ سنوات الاعانة المالية المقدرة ذهبا بـ 30.000 "أوريوس"[3]

ومن المؤكد أن الحروب المكلّفة التي خاضها هيراكليوس ضد الفرس قد خربت الامبراطورية"[4]. أمّا وضع العرب الخاضعين للدولة الساسانية فسيكون أكثر عسرا من وضع الغساسنة ذلك أن كسرى أبرويز ما أن تولّى الحكم حتى بادر بتقليص اشراف النعمان بن المنذر اللخمي (580 - 604) على بلاد الخليج وبذلك اتصل الحكم الساساني المباشر على طول الممرّ من اليمن الساسانية الى البحرين الى البلاد الايرانية. ويختلف المؤرخون كذلك في تحديد أسباب فساد العلاقة بين كسرى أبرويز واللخميين فسادا دفع الشاه الايراني الى قتل النعمان

2- ص 115 - ... Havenith. Les arabes chrétiens nomades

3- أوريوس (Auréus) هو العملة الذهبية الرومانية المتداولة في العصر موضوع الدراسة. وتساوي الوحدة منها سنة 1987 حسب ما ذكر (هافينيث) بين ثلاثة وأربعة آلاف فرنك بلجيكي (انظر ص 114 من المرجع السابق).

4- ص 115 - ... Havenith. Les arabes chrétiens nomades

الثالث سند 604. ولا يمكن للمرء الا أن يتعجب من بعض الأسباب التي قدمت كتفسير لذلك. وهي تشبه ما فنّدنا من تفسير لفساد العلاقة بين موريس وأمراء بصرى. فهذا كريستنسن على قيمة ما كتب فيما يتّصل بتاريخ الساسانيين يكتب :

وكان النعمان الثالث ملك الحيرة الذي اعتنق المسيحية ضحيّة أخرى من ضحايا مزاج كسرى الحقود. ويقال ان النعمان الثالث لم يطع أوامر كسرى عندما طلب مصاحبته أثناء هروبه من بهرام تشوبان وأنه رفض أن يزوّجه ابنته. وقد أمر في فترة واقعة بين 595 و604 بسجنه ثم بقتله وانتزع في الوقت ذاته الامارة من العائلة اللخمية ليحوّلها إلى اياس من قبيلة طيء ويعيّن الى جانبه مراقبا فارسيًا"[5].

ان كريستنسين يدمج في الحقيقة أسبابا ثلاثة ذكرها المؤرخون المسلمون في ما يشبه التفسير لامتحان كسرى النعمان وانهاء دور اللخميين في الحيرة وهي :

- سبب ديني
- سبب سياسي
- سبب نفسي

وبعض هذه الأسباب ان صحّت تدخل في رأينا ضمن العوامل الثانوية اذ أن امكانية اعتناق المسيحية في هذه الفترة المتأخرة التي لم يعد فيها التحول من عقيدة الى عقيدة أخرى أمرا غير معهود في بلاد الرافدين التي كانت فيها تغلب مثلا مونوفيزيّة بل كان من يسمّون بالعبّاد مسيحين منذ فترة طويلة لا يمكن اعتباره عاملا حاسما في قرار أبرويز هذا الذي مكّنه الامبراطور موريس المسيحي من تاج ايران.

كما أن ما ذكر من احجام النعمان عن اعانة كسرى اثناء استيلاء بهرام على الحكم يبدو تفسيرا متهافتا اذ كيف أبقى كسرى أبرويز على النعمان طيلة المدة الفاصلة بين 590 و604.

5- ص 447 – ... Christensen... L'Iran

أما السبب الثالث وهو رفض النعمان تزويج ابنته الشاه الفارسي وان كان يمكن أن يفسّر سلوك ملوك الاطلاق الذين يعتبرون الاستجابة لنزواتهم شرطا لا خلاص تابعيهم، فانه لا يصلح في ظروف الحرب الطويلة المريرة مبرّرا للتخلي عن أنصار قد تكون مساهمتهم في الحرب مصيرية مهما ذكرت المصادر عن كسرى أبرويز من افراط جعله يجمع في قصره 3000 امرأة عدا آلاف الفتيات اللائي كن يخدمنه أو يغنّين له"[6]. ثم ان صورة النعمان التي تظهر هنا وكأنها تعبير عن "أنفة" العربي ازاء "الأعجمي" (أي صورة مسّيسة) لا تتفق وما تثبته الصورة الأدبية العربية عن هذا الامير التنوخي من سلوك يتصل بنظرته إلى العلاقات الجنسية فقد ذكرت بعض الاخبار التي لا تخلو من طابع خرافي كما هو شأن كل الاخبار تقريبا التي تتناول هذه الفترة أن النابغة "كان من أخصاء النعمان فدخل عليه يوما فجأة ومعه امرأته المتجرّدة فالتفتت اليه مذعورة فسقط نصيفها فاستترت بيدها وذراعها فكادت ذراعها تستر وجهها لغلظها وكثرة لحمها فامره النعمان أن يقول قصيدة يصفها فيها فقال قصيدته التي يقول فيها :

سقط النصيف و لم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

فوصف منها مواضع لا يليق ذكرها. وكان المنخّل اليشكري من ندماء النعمان وكان فاسقا وأما النابغة فكان عفيفا نقيّا فغار من وصف النابغة لها فقال والله لا يقول هذا الا من جرّب فغضب النعمان واراد أن يبطش بالنابغة (...) فهرب إلى ملوك غسان بالشام فكان يمدحهم ثم أن النعمان اطلع على ما بين المتجردة امرأته والمنخّل من الريبة فقتلهما في قصّة طويلة فكتب إلى النابغة انّك لم تعتذر من سخطة ان كانت بلغتك ولكّنا تغيّرنا لكل عن شيء ممّا كنّا لك عليه ولقد كان في قومك ممتنع وحصن فتركته ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدّي وبيني وبينهم ما علمت فقدم اليه (...) وقيل ان النابغة قدم في جوار رجلين من

6- المرجع السابق ص 458.

فزارة لهما منزلة عند النعمان فرأى احدى قيان النعمان فلقنها قصيدته التي اعتذر فيها وهي :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد[7]

فالاجدر عندئذ أن نعتبر موقف كسرى أبرويز نابعا من نظرة سياسية محدّدة لا تأثير كبيرا للعواطف فيها. وتتمثل هذه النظرة في رأينا في فقدان الحيرة دروها نهائيا بعد أن اختلّت الموازين بين الدولتين العظميين من جديد بعد سنة 602 عندما أحس كسرى أبرويز بقوة كافية مكّنته من اعلان الحرب على بيزنطة مستغلا حادثة قتل فوكاس (602 – 610) الامبراطور موريس إذ نعتقد أن ردّ الحرب إلى سعي كسرى أبرويز الى مجرد الانتقام من قاتل "وليّ نعمته" موريس انما هو أشبه ما يكون بتفسير التحالف الاروبي نهاية القرن الثامن عشر ضد فرنسا بقتل الملكة ماري أنطوانيت أو الحرب العالمية الاولى بقتل القومي اليوغسلافي برينسيب Princip عضو الجمعية السرية الوحدة أو الموت (اليد السوداء) الارشيدوق النمساوي فرانسوا فرديناند سند 1914 في سيراييفو. والحال أن العلاقات الدولية تقوم على توازن متعدّد الوجوه يجعل من الأحداث الجزئيّة مجرّد مبرّرات لمحاولات تغيير هذا التوازن. ولا يمكن انطلاقا من هذا الفهم للأشياء أن يكون كسرى أبرويز حتى اذا كان قد وصل إلى الحكم بعون من الامبراطور البيزنطي موريس راضيا عن وضع ينزّل امبراطوريته منزلة القوة التابعة لبيزنطة وذلك في وقت شهد ضغطا متزايدا سلطه البلغار عليها في الشمال فشلّوا قواها في الشرق الادنى كما شهد في شرق الامبراطورية الايرانية انحلال دولة الاتراك توكيو الذين خلفوا الهياطلة في السيطرة على أوزبكستان وبلاد الصغد والقرم وبكتريان ثم سقطت دولتهم في فوضى استغلتها العائلة الصينيّة المالكة (سو ـ واي Souei) للهيمنة على كل المنطقة طيلة سبعين سنة.

7– الشنقيطي ـ شرح المعلقات العشر ـ ص 157.

هذا هو الوضع العالمي عندما أعلن كسرى أبرويز الحرب على بيزنطة:
- انقشاع ضغط الاتراك على شرق الامبراطورية الساسانية
- اشتداد ضغط السلافيين والبلغار على البيزنطيين في البلقان (الجبل بالتركية).

وهذا هو الوضع الذي سمح لجيوش كسرى أن تبلغ في زحفها مشارف القسطنطينية فتسبّب ردود فعل عسكرية وشعبية على حكم فوكاس الضعيف في الدفاع عن الامبراطورية والمتعسف داخليا وفي زحف الارمني هرقل على بيزنطة بأسطول انطلق من قرطاج لينهي حكم فوكاس.

وإذن فعلى المستوى الداخلي لم يكن وضع بيزنطة بأفضل مما كان عليه خارج الحدود فالانقسامات الدينيّة لم يتقلّص تأثيرها بل احتدّ الصراع الديني بين البابا غريغوار الكبير (590 ـــ 604) وبطريرك القسطنطينيّة يوحنا الصائم Jean le Jeuneur عندما سعى هذا الى ادعاء هيمنة دينية لا يبررّها وضع بيزنطة الخارجي السيء والداخلي الاكثر سوءا وفي وقت بدأ فيه ساعد البابوية يشتدّ تعويضا للفراغ السياسي في ايطاليا عقب استيلاء متبربرين جدد عليها هم اللومبارديون. فهذه الفترة والفترات التي تليها يمكن أن تعدّ فترة انحطاط حضاري بيزنطي شامل:

> تعرضت الحضارة البيزنطية في القرن السابع إلى كسوف حقيقي فلم يعد هناك كتاب ولا مؤرخون ولا منشآت معمارية كبرى وهيمن الخوف في كل مكان وسكنت الخرافة الأكثر بدائية النفوس. ومع ذلك فإن ما ذكرنا لم يكن علامة دالة على انحطاط مستديم، وإنما كان يدل على أزمة عميقة سيتغير بموجبها وجه الامبراطورية. لقد نشأت هذه الأزمة من فقدان الوحدة الذي طبع علاقات الغرب والشرق بطابع العداء وكذلك من النزاع في الشرق ذاته بين البلاد الارثوذوكسية والمقاطعات المونوفيزية. لقد فشل جوستينيان في جهده الكبير من أجل احياء "الروح الرومانية" وكان على الامبراطورية ان تدفع في القرن الموالي ثمن طموحاته العصبيّة : فتح العرب أثرى مقاطعات الشرق، استقرار السلافيين الدائم في شبه جزيرة البلقان، نشأة الدولة البلغارية. إن النتيجة شملت كل الجوانب، الجغرافي والجنسي والاقتصادي والديني والاداري وبذلك تحولت الامبراطورية بشكل حاسم فلم تعد امبراطورية رومانية وانما اصبحت امبراطورية الشرق الاغريقية"[8].

8- ص ص 65 – 66 - .Lemerle. - Histoire de Byzance...

على أن ما يبدو لنا أكثر أهميّة من البحث في أسباب انهاء كسرى حكم اللخميين هو نتائج هذا القرار السياسي الذي أحدث فراغا عربيا ستتأزم نتيجة له العلاقات بين الدولة الفارسية وبدو الخليج بصفة خاصة وستصل حدّ الصدام المباشر في ما سمّي بوقعة ذي قار (611) التي ذكر أن النبي محمّد قال عندما بلغته أنباؤها "اليوم انتصفت العرب من العجم وبي نصروا" والتي اضطر كثير من المؤرخين حفاظا على هذا الحديث المنسوب الى النبي وحرصا على المنطق التاريخي إلى ادراجها ضمن أحداث ما بعد الهجرة (622).

كتب ابن خلدون متحدثا عن فساد العلاقة بين الايرانيين وعرب الخليج أساسا:

> وولّى (كسرى أبرويز على الحيرة) اياس بن قبيصة (الطائي) فلم تستقم له طاعة العرب (من بكر وتميم وعبس) لقتل النعمان"[9].

وكتب:

> ووفد حاجب بن زرارة من بني تميم على كسرى في طلب الانتجاع والميرة بقومه في أرياف العراق فطلب الاساورة منه الرهن على عادتهم فأعطاهم بقوسه واستكبر عن استرهان ولده"[10].

ويكاد المرء يستغني عن القول ان قبيلة كبيرة كتغلب المعادية لاختها بكر ستوثّق علاقاتها بكسرى أبرويز حالما تفسد العلاقة بينه وبين بكر وتميم وستكون في صف كسرى وطيء وذبيان في الوقعة المذكورة.

ان هذه الوقعة التي ضخمت الاديولوجيا الاسلامية ومن ثم القومية (لا يمكن في نظرنا الفصل بين الاسلامية والقومية اذ الاسلام في منشئه دين قومي) تأثيرها (رغم أن الصراع فيها لم يكن ايرانيا عربيا بحتا بل كان كذلك عربيا ـ عربيا) انما تدلّ في الحقيقة على بلوغ التفتّت العربي منتهاه حتى أن غطفان المضرية التي تقع منازلها في نجد انقسمت على نفسها فاذا أحد بطونها[11] وهو

9- ابن خلدون... العبر، م 3، ص 567.

10- المرجع السابق ص 708.

11- يتوزع النسب العربي البدوي تنازليّا كالتالي : 1) ـ الشعب 2) ـ الحي 3) ـ القبيلة 4) ـ الفصيلة 5) ـ العمارة 6) ـ البطن 7) ـ الفخذ.

ذبيان يربط مصيره بطيء والساسانيين في حين اتّجه أكثر بطونها نفوذا وهيمنة وهو عبس اتجاها معاكسا فحالف تميما وبكرا.

ان ما يدفعنا الى التشديد على فكرة التفتّت في هذه الفترة هو ملاحظة الانخرام في مختلف مظاهر الحياة العربية ومنها المظهر العقدي. لقد انقسم العرب دينيّا كما انقسموا سياسيا وتوزعوا بين اليهودية والمسيحية والوثنية ولكن هذا الانقسام لم يعد قادرا على تحقيق الطمأنينة الدينية فغلبت الحيرة على الناس وهيمن نوع من التهيّؤ لقبول دين وطنّي يميّز الجماعة العربية عن غيرها من الاجناس واذا كان جزء من عرب المدينة قد تهوّدوا فمكنهم هذا الدين من الارتقاء الى حساسية العصر التي تجاوزت عبادة الاصنام وما شابه الاصنام في كثير من مناطق العالم القديم شأنهم في ذلك شأن غساسنة الشام النصرانيين وقبائل أخرى ككلب في دومة الجندل وتبوك أو عدنانيي ربيعة كتغلب فان جزءا كبيرا من العدنانيين خاصة كانوا يعيشون انحلالا في عقائدهم الوثنية القديمة مسّ مثقفيهم وجهلتهم على حدّ سواء. وتذكر الاخبار المتعلقة بالموضوع فقدان الاوثان هيبتها في هذا العصر الذي كان يتّجه في شبه حتمية الى مزيد من التجريد أي الى الديانات التوحيدية قال ابن اسحق:

وكان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر صنم يقال له سعد، صخرة بفلاة من أرضهم طويلة فأقبل رجل من بني ملكان بابل له مؤبلة (تتخذ للقنية) ليقفها عليه التماس بركته فيما يزعم، فلمّ رأته الابل، وكانت مرعيّة لا تركب، وكان يهرق عليه الدماء، ففرّت منه فذهبت في كل وجه، وغضب ربها الملكاني، فأخذ حجرا فرماه به،ثمّ قال : لا بارك الله فيك نفرت عليّ ابلي، ثمّ خرج في طلبها حتى جمعها، فلمّا اجتمعت قال :

أتينا الى سعد ليجمع شملنا ... فشتّتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد الا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا تعدو لغي ولا رشد[12]

12- ابن هشام .... السيرة النبوية، ج 2، ص 87.

أمّا قصّة حنيفة بن لجيم من بكر العدنانيّة مع معبودها فهي أكثر دلالة على ما لحق الديانة الوثنيّة من هوان إذ "كان لهم صنم يعبدونه فلحقتهم مجاعة في بعض السنين فأكلوه وكان مصنوعا من الحلوى والسمن والعسل"[13].

فلا غرابة والحال على ما وصفنا أن يلحق عقائد الوثنيّة حتى في مكّة ما لحق عقائد بقيّة العرب الوثنيّة في مناطق أخرى من الجزيرة العربية. كتب ابن خلدون يصف حيرة بعض المثقفين القريشيين :

احتمع (...) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّي وعثمان بن الحويرث بن أسد وزيد بن عمرو بن نفيل من بني عديّ بن كعب عمّ عمر بن الخطاب وعبد الله بن جحش من بني أسد بن خزيمة وتلاوموا في عبادة الاحجار والاوثان وتواصوا بالنفر في البلدان بالتماس الحنيفيّة : دين ابراهيم نبيهم.

فأما ورقة فاستحكم في النصرانيّة وابتغى من أهلها الكتب، حتى علم من أهل الكتاب. وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه، حتى جاء الاسلام فأسلم وهاجر الى الحبشة فتنصّر وهلك نصرانيّا. وكان يمرّ بالمهاجرين بأرض الحبشة فيقول : "فتحنا وصأصأتم، أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر مثلما يقال في الجرو اذا فتح عينيه فقح، واذا أراد و لم يقدر صأصأ. وأمّا عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم قيصر فتنصّر وحسنت منزلته عنده وأمّا زيد بن عمر فلم يدخل في ديهن ولا اتبع كتابا واعتزل الاوثان والذبائح والميتة والدم.

ونهي عن قتل الموؤودة وقال : أعبد ربّ ابراهيم. وصرّح بعيب آلهتهم وكان يقول: اللهم لو أنّي أعلم أي الوجوه أحب إليك لعبدتك، ولكن لا أعلم. ثم يسجد على راحته"[14].

واذا كان هذا هو موقف كثير من مثقفي العرب وحتى عامتهم فمن السهل أن نتصوّر شان النبي محمّد وهو الذي جمع من الصفات ما مكّنه من توحيد العرب على أساس ديني ومكنهم من دولة اتّسعت فشملت شعوبا عديدة واحدثت تغييرا في مسار التاريخ العالمي.

كان النبي محمد في حدود سنة 610 قد بلغ الاربعين من العمر وتحدّدت صفاته الجسدية والعقلية والنفسية المترابطة فيما بينها ترابطا وثيقا - وصفه علي رفيقه وابن عمّه وأحد ممثلي هذا الجيل الجديد وليد بدايات القرن السابع كالتالي :

13- كحالة ... معجم قبائل العرب، ج 1، ص 313.

14- ابن خلدون ... العبر، ج 3، ص ص 707 - 708.

لم يكن بالطويل الممّغط (الممتدّ) ولا القصير المتردّد. وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط (الشديد جعودة الشعر) ولا السبط. كان جعدا رجلا (مسرّح الشعر) ولم يكن بالمطهّم (العظيم الجسم) ولا المكلثم (المستدير الوجه في صغر) وكان أبيض مشربا، أدعج (الاسود العينين) العينين، أهدب (طويلها) الاشفار، جليل المشاش (عظام رؤوس المفاصل) والكتد (ما بين الكتفين) دقيق المسربة (الشعر الذي يمتدّ من الصدر الى السرّة)، أجرد (القليل شعر الجسم)، شثن (الغليظ) الكفين والقدمين، اذا مشى تقلّع (لم يثبت على قدميه) كأنما يمشي في صبب (ما انحدر من الارض). واذا التفت التفت معا بين كتفيه خاتم النبوّة[15].

وكان في هذه السنة ذاتها (610) التي كاد العالم القديم يشرف فيها على الانهيار قد أعلن دعوته في نطاق ضيّق لا يتجاوز الأقرباء والمقرّبين. وستعرف هذه الدعوة أطوارا معروضة في الكتب ليست من غرض هذا الكتاب.

15- ابن هشام، السيرة النبوية ، ج 2، ص 42.

ما يشبه الخاتمة :

قوى تولد وأخرى تموت

عندما ظهر اسطول هرقل الصغير في الأفـق البيزنطي أعـان البيزنطيون هذا القائد الارمني على اسقاط العسكري فوكـاس فتسلّم ابن حـاكم قرطـاج الحكم (610 ـ 641) ولكنـه لم يتمكّـن في البدايـة مـن الحيلولـة دون تتـالي الانتصارات الساسانية على البيزنطيين.

وقد سعى منذ تولّي الحكم الى البحث عن حلّ لمعضلة الصـراع العقـدي الـذي كان يفرّق بين الدولة الأرثوذوكسـية ورعاياهـا المونوفـيزيين في سـوريا ومصـر فأحدث مذهبا جديدا ذا غاية توفيقيّة يقول بالارادة الواحدة (Monothélisme) أي أن للمسيح ارادة واحـدة وطبيعتـين. غـير أن هـذا المذهـب الجديـد لم يحـظ بتأييد يذكر فقد حارب المونوفيزيون هـذا المنحى التوفيقـي ولم يتبنّـه في نهايـة الامر غير بعض رجال البلاط وبعض الأرمن واللبنانيين ممّن سيعرفون فيمـا بعـد بالمارونيين (نسبة الى مار أي القديس مارون) : هذا الفشل في السعي الى تحقيـق الوحدة الدينية انضاف اليـه كمـا سبق أن ذكرنـا فشـل في الحـدّ مـن الضغـط الساساني على بيزنطة اذ تتالت انتصارات كسـرى أبرويـز فاسـتولى سـنة 614 على فلسطين وبلغت القوات الساسانيّة أقصـى حـدود آسـيا الصغـرى فكـانت القسطنطينية سنة 616 في وضع المدينة المحاصرة شمالا من البلغاريين وجنوبـا مـن الساسانيين بل ان مصر ذاتها، هذه المقاطعـة البيزنطيـة الافريقيـة جغرافيـا علـى الأقل، ستسقط في أيدي الساسانيين سنة 619 وسـتبقى في أيديهـم حتـى مقتـل كسـرى أبرويـز سـنة 628 وانخـرام التـوازن نهائيـا لصـالح هرقـل ودخـول الامبراطورية الساسانية حالة النزع الاخير الذي عبّر عنه سياسيا توالي اثني عشر

ملكا على المدائن في ظرف أربع سنوات (628 - 632). لقد تسبّب هذا الوضع في حدوث فراغ كبير: ففي مصر رحّب المونوفيزيون بالساسانيين نكالة في بيزنطة الارثوذوكسيّة وفي فلسطين استغلّ اليهود فرصة اندحار البيزنطيين وهيمنة الساسانيين طيلة الفترة 614 – 628 ليعلنوا تمرّدهم على الدولة البيزنطية سنة 614. ولولا انتصار الدولة العربية الاسلامية اثر اندحار الفرس وحمايتها لاهل الكتاب لكان بامكان البيزنطيين أن يعرضوا اليهود لامتحان من شأنه أن يهدّد وجود هذه الملة ذاته[1].

وفي هذه الفترة التي أفل فيها نجما اماراتي الحيرة وبصري ستنشأ نتيجة لما يشبه القانون الطبيعي الذي يقول انه متى حدث فراغ في الجزيرة العربية وحواشيها برزت قوة جديدة تعويضيّة (أفول دور البتراء ونشأة امارة تدمر / أفول دور تدمر ونشأة امارة الحيرة...) قوّة جديدة عدنانية (المهاجرون) قحطانية (الانصار) هي نواة الدولة العربية الاسلامية.

لقد استنجد النبي محمد بالقحطانيين في المدينة فنصروه (622) هم والقلة القليلة من العدنانيين في هذه الفترة التي بلغت فيها الهزائم البيزنطية أشدهًا وكثر التساؤل حول مصير الامبراطورية البيزنطية وانقسم النّاس الى مؤيدين للساسانيين ومؤيدين للبيزنطيين ومنهم النبي محمّد كما تثبت ذلك الآيات الأولى من سورة الروم :

> ألم. غلبت الروم في أدنى الأرض[2] وهم من بعد غلبهم سيغلبوْن في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر ا لله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد ا لله لا يخلف وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

---

1 – ص André Chouraqui . -Histoire du Judaïsme, 1968. - 51.

2- أدنى الأرض : جنوب الشام.

ولقد كانت القراءة القرآنية للاحداث هي القراءة الصحيحة اذ تمكّن هرقل من قلب الموازين بداية من سنة 622 ومن استعادة آسيا الصغرى ودحر الجيوش الساسانية في أرمينيا (625) وأذربيجان ثم تمكّن سنة 628 من محاصرة المدائن نفسها فهرب كسرى أبرويز من العاصمة ليلقى مصرعه اثر تمرّد سببته هذه الهزائم الساسانية المتتالية ... ولكن هل خرج هرقل منتصرا حقيقة بعد هذه الحرب التي أتت على قوى القوتين العظميين ؟

أن هذه الأحداث هي التي تفسّر سعي العرب بقيادة النبي محمّد منذ نهاية العقد الثالث من القرن السابع الى السيطرة على الشام بعد أن تبدّى ضعف الدولتين لعيني النبي السياسيتين الثاقبتين فكانت غزوة قرية مؤتة (629) في الكرك (الأردن حاليا) التي إن انتهت بالفشل (مقتل القادة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحه) فقد دلّت على أن أنظار العرب بدأت تتّجه منذ هذه الفترة الى خارج الجزيرة العربية. ولقد تمكّنوا فعلا بعد موت نبيهم الديني وقائدهم السياسي من تأسيس دولة هاشمية عبشمية لم ينه دورها في القرن العاشر غير خصومهم القدماء ممثلين أولا في الايرانيين ومنهم بنو بويه ثم في الاتراك بعد ذلك : ولقد حقّق هؤلاء هذه المرة ما عجز عنه أجدادهم من الـ (تو ــ كيو) (ق. 6-8) والـ (اويغور) (745 – 840) اذ سيطروا على المنطقة السلاجقة (ق 11-13) ثم العثمانيون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

المصادر والمراجع

بالعربية.

ابن خلدون (عبد الرحمن)	كتاب العبر، م 3، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1977.
ابن هشام	السيرة النبوية، ج 2، القاهرة، مطبعة الحلبي وشركاه، 1936.
حتّي (فيليب)	خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، بيروت، الدار المتحدة للنشر، ج 1، 1975.
الشرفي (عبد المجيد)	الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع (الباب الأول)، تونس، الدار التونسية للنشر، 1986.
الشنقيطي (أحمد بن الأمين)	شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، بيروت، دار الكتاب العربي، 1992.
كحالة (عمر رضا)	معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، دار العلم للملايين، ج 1، 1968.
النجّار (أحمد مختار)	علاقة أمراء الحيرة بعرب شبه الجزيرة كما يصورها الشعر، القاهرة، دار النهضة العربية، 1979.

بالفرنسية.

BABELON, Jean	Impératrices syriennes, Paris, A . Michel, 1959.
CHATELET, François et autres	Histoire des idées politiques, Paris, P.U.F, 1982.
CHOURAQUI, André	Histoire du judaïsme, Paris, P.U.F, 1968.

CHRISTENSEN, Arthur	L'Iran sous les sassanides, Conpenhague, Levin et Munsksgaard, Enjar Munskgaard, 1939.
DIEHL, Charles	L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination byzantine en Afrique (553-709) vol. 1, New York, B. Franklin, sd.
CASTELLAN Georges	Histoire des Balkans (XIV-XX siècles) Paris, Fayard, 1992.
DRIOTON Etienne et **VANDIER** Jacques	L'Egypte des origines à la conquète d'Alexandre, Paris, P/U/F, 7ème éd.. 1989.
ENGEL, Jean-Maris	L'Empire romain, Paris, P.U.F, 1980.
FURON Raympnd	L'Iran, Perse, Afgahanistan, Paris, Payot, 1951.
GAUDFROY- DEMOMBYNES et autres	L'Islam et la politique contemporaine, Paris, F. Alkan, 1929.
HAVENITH Alfred	Les arabes chretiens nomades au temps de Mohamad, Louvain La Neuve, C.H.R, 1988.
LAROUI, Abdallah	Histoire du maghreb. Un essai de synthèse 2 tomes, Paris, Petite collection Maspero, t.1, 1976.
LEBON Gustave	La civilisation des arabes, Syracus, Imag, 1959.
LEMERLE, Paul	Histoire de Byzance, Paris, P.U.F, 1956.
RICHE Pierre et **LEMAITRE** Philippe	Les invasions barbares, Paris, P.U.F, 1983.

RONDOT Pièrre — Les chretiens d'orient, Paris, J. Peyronnet et Cie, 1955.

TUBIANA J. et autres — Mer rouge, Afrique Orientale, Paris, J. Peyronnet, 1959.

WATT Montgomery — Mahomet et la Mecque, Paris, Payot, 1958.
Mahomet à Medine, Paris, Payot, 1959.

ينتاول هذا الكتاب تطوّر وضع العرب من القرن الثالث الميلادي إلى قيام الدولة العربية الإسلامية...

لقد كانت الدول الساسانية والرومانية والحبشية، وإن بدرجات متفاوتة، هي القوى العظمى طيلة هذه الفترة... غير أن الحروب المتواصلة بين الساسانيين والرومان ثم البيزنطيين انتهت في القرن السابع إلى حالة نزيف ذهب بقوى القوتين العظميين جميعا ورافق هذا النزيف حيرة عقدية رشحتهما إلى ما يشبه النزع الأخير في حين شهد العرب في ذات الوقت ولادة وحدة قومية دينية مكنتهم من ملء هذا الفراغ العالمي فأسسوا لهم دولة عربية إسلامية دامت ثلاثة قرون...

محمد الناصر النفزواي
أستاذ مساعد بكلية الآداب 9 أفريل بتونس..
صدر له:
- رواية "المتشابهون"،دار الحوار (سوريا 1987).
- "محمد كرد علي، المثقف وقضية الولاء السياسي"، دار الجنوب (تونس 1993).

السعر 3.200 دت

ISBN: 9973-703-46-4